الباب السابع

"مع أولبريخت" إلى برلين

وفى الساعة السادسة صباحا من يوم ٣٠ ابريل وقف « أتوبيس » فى حارة صغيرة جانبية أمام المدخل الجانبى لفندق « لوكس » ، فهو مكلف بتوصيلنا — نحن العشرة أعضاء « مجموعة أولبريخت » الى المطار .

ركبنا فيه صامتين .. ليس هناك رسميات للتوديع — باستثناء حفلة التوديع الصغيرة عند « فيلهيلم بيك » — اذ لا أحد يعلم بموعد رحيلنا ، كذلك لم نخبر أحدا بشىء عن هذه الرحلة — عادة التحمت بالدم واللحم .

لو نظر الينا أجنبى فى تلك اللحظة ، ما فكر فى أننا مجموعة من اللاجئين السياسيين الألمانيين ، يتخذون طريق عودتهم الى الوطن ، بعد اقامة عشر سنوات أو أكثر فى المنفى .

لم تزل الشوارع خالية ، نحن نمر فى (Uliza Gorkowo) عن طريق ميدان « بوشكين » فى اتجاه المطار . كان صباحا ربيعا جميلا ، تجملت المدينة كلها بالشعارات والزهور لاستقبال أول مايو . انتابنى — مع كل الابتهاج بالسفر الى ألمانيا — بعض الاكتئاب ، لأنى أترك موسكو .

تربطنى بهذه المدينة ذكريات لا تنسى : المدرسة ، بيت الأطفال ، المعهد العالى ، أصدقائى من الأجانب والروسيين ، صديقتى فى الطفولة « ايريكا » وصديقتى الروسية التى أحببتها جدا ، جولاتى الجميلة فى (A. Bou'evard) وفى شارع « جوركى » وفى « منتزه الكرملين » وعلى ضفاف نهر موسكو .

لم تكن هذه اللحظة هى الوقت المناسب للاستسلام لهذه الذكريات ، بدأ الحديث فى الاتوبيس ، فقال واحد :

« معى عدد الأمس من « برافدا » وفيه احصاء تفصيلى عن تطور اقتصاديات الدولة ، ويمكن أن نستفيد من هذا كثيرا فى دعايتنا فى ألمانيا » .

فهز « أولبريخت » رأسه مؤمنا على هذا الرأى • ثم سرح فكرى : يهتم الناس فى ألمانيا بلاشك بأمور أخرى غير هذا •

وبعد ربع ساعة وقف الأتوبيس أمام مبنى مطار موسكو • وكما هى العادة كان لزاما علينا أن نقف أمام باب معين •

ـ (Propusk) قالها حارس الباب بنغمة حادة فناوله « أولبريخت » ورقة نظر فيها ، ثم قال « أوكى » وتركنا نمر • فتوجهنا الى طائرة تقف بعيدا على جانب من المطار • كانت طائرة أمريكية الصنع من طراز « دوجلاس » اتخذنا مقاعدنا ، ثم انطلقت الطائرة بعد دقائق قليلة •

لم يعرف أحد منا ، أين سنهبط ! باستثناء « أولبريخت » علمنا فقط أن الطائرة متجهة الى ألمانيا وستهبط فى منطقة يسيطر عليها المارشال « شوكوف » كذلك كانت جزئيات مهمتنا غامضة ، فما كنا نعرفه هو : يجب أن نقوم بالعمل السياسى الموجه ضد الفاشية وبقاياها ، فى سبيل تحويل ألمانيا الى دولة ديمقراطية •

* * *

مجموعة « أولبريخت »

لم أتعرف على معظم مجموعة « أولبريخت » الا فى الأيام الأخيرة ، ولا أعلم من اختارهم ! ولا على أى أساس اختير هؤلاء القياديون العشرة الذين سمح لهم بالعودة الى ألمانيا فى الفوج الأول ! ولكن اذا رجعت بتفكيرى اليوم الى هذه المجموعة تبين لى أنه كان اختيارا موسوما بسمة خاصة ، فقد كانوا صورة صادقة لنموذج القياديين المخلصين « للستالينية » •

١ ـ « فالتر أولبريخت » رئيس المجموعة ، كان عمره فى ذلك الوقت ٥١ عاما ، ولد فى « ليبزج » صناعته نجار • يدعى اليوم أنه انضم الى الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى عام ١٩١٢ م وكان عمره فى ذلك الوقت ١٩ عاما • ومنذ عام ١٩١٦ م وهو يسهم بنشاطه فى « رابطة سبارتاكوس »(١) •

---

(١) اتحاد مؤلف من منظمات يسارية بزعامة ليبكنيشت ، و • ر لوكسمبرج ونشأ عنه الحزب الشيوعى الالمانى فى عام ١٩١٨ • م • شامة •

كان « أولبريخت » عضوا فى البرلمان الألمانى عن الحزب الشيوعى من عام ١٩٢٨ م الى عام ١٩٣٣ م • ومنذ عام ١٩٢٩ م سكرتير الحزب الشيوعى فى برلين الكبرى و « براند ينبرج » • هرب فى عام ١٩٣٣ م الى فرنسا ، ومنذ عام ١٩٣٣ م عضوا فى زعامة اللاجئين السياسيين من الحزب الشيوعى الألمانى فى براغ وباريس •

وكان فى أسبانيا حيث — غير أنى علمت بذلك فيما بعد — فضح فى جيش الجمهورية الأسبانية بسبب ما أصاب مناضلين ثوريين يناهضون « الستالينية » من تصفية الحساب معهم • جاء الى فرنسا بعد هزيمة الجمهورية الأسبانية ، وبعد سقوطها فى يد قوات « هتلر » ذهب الى موسكو •

تكمن قوته فى ذكائه فى التنظيمات ، وقوة ذاكرته فى حفظ الأسماء ، وقدرته فى ملاحظة شواهد تغيير التيارات السياسية قبل ظهورها ، وقوة احتماله فى العمل ؟ اذ لا يظهر عليه التعب بعد العمل الشاق طول اليوم •

نجح دائما فى تنفيذ المهمات التى كانت تأتيه من جانب الاتحاد السوفييتى بأسلوب صارم دون ثقل التنوق النظرى ، والشعور الانسانى — فنادرا ما كنت أراه يضحك ولم أذكر أنى لاحظت عليه التأثر بشعور انسانى •

أصبح « أولبريخت » بعد عام ١٩٤٥ م حزبيا من الطراز الأول يستطيع اصدار الأوامر الى القياديين ، ولكنه لم يكن فى قدرته تحويل الجماهير الى فكرة يتبناها • كان يأتى فى المرتبة الثالثة — فى بادىء الأمر — بعد « بيك » و « جروتيفول » ولكن توطد مركزه فجأة بعدما انتهت عملية تنفيذ الثورة الاشتراكية (مثل الاصلاح الزراعى ، وتأميم الشركات ، واصلاح مناهج التعليم) التى احتاجت الى التأييد — حتى ولو كان سلبيا — من طبقات الشعب الأخرى ، وأصبحت أجهزة الحزب هى الأداة الحاكمة •

٢ — كان القيادى « ريشارد جيبتز » ، ولد فى هامبورج — بأسلوبه فى التزلف والتقرب مساعده المناسب ، فقد كان أقرب — بسبب نقص طاقته — الى موظف الحزب منه قياديا فى الحزب ، فلا مزاج عنده ، فمن صفاته « الحفلطة » على المكتب والعناية بملبسه • لم يبدو قادرا

على الانفعال الشعورى القوى فلم أره هائجا متحمسا ، ولم أشهده ثائرا من شدة الغضب • ولهذا كان سهلا عليه أن يتقبل تقلبات اتجاه الحزب ، ويبلغها دون صعوبة ، فهى حوادث لا تأخذ منه مجهودا أكثر من تثبيت وثائقها فى مكانها بين الأوراق •

لم يتحدث عن نفسه الا قليلا ، ولكن علمنا أنه كان عضوا فى قيادة انتساب الشيوعى العالمى سنوات عديدة ، وكان يعمل فى موسكو فى أجهزة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية زمنا طويلا — وفيما بعد فى المعهد رقم ٢٠٥ •

أصبح « ريتشارد جيبتر » بعد عام ١٩٤٥ م رئيس السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى ثم تقلد أخيرا منصبا كبيرا فى الشرطة ويرأس حاليا القسم الرئيسى « للبلاد الخارجية الرأسمالية » فى وزارة خارجية « ألمانيا الديمقراطية » •

٣ — « أوتوفينسر » كان معروفا فى موسكو بالاسم الحركى : « لورنس » يشبه « ريتشارد جيبتر » فى بعض الصفات • ويختلف عنه بذكاء حاد ، لم يمكنه فقط من توصيل الأوامر ، بل التحمس لتنفيذها أيضا ، وملاحظة المكلف بقسوة ، دون مراعاة لأى اعتبارات شخصية وتبريرها — وان كان ذلك سطحيا — أيدولوجيا • كان يمثل طراز القسوة أكثر من كل الآخرين من أعضاء « مجموعة أولبريخت » بارد برود الثلج ، قياديا « ستالينيا » ، ينفذ التعليمات دون قيد ولا شرط فقد كل علاقة بالحركات العمالية ، وكل اتصال بالمثالية الاشتراكية والاخوة ، بواسطة نشاطه مدة طويلة فى الجهاز •

تسلق «فينسر » بعد عام ١٩٤٥ م الدرجات العليا فى الوظائف المختلفة ، فقد تولى فى مايو عام ١٩٤٥ م ادارة الثقافة الجماهيرية فى مجلس بلدية برلين ، وكان رئيسا لقسم الصحافة والاذاعة فى السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى من عام ١٩٤٦ م الى عام ١٩٥٠ م • وبالاضافة الى ذلك تولى لفترة طويلة منصب نائب رئيس تحرير جريدة « ألمانيا الجديدة » وفى أكتوبر عام ١٩٤٩ م قفز فأصبح رئيس هيئة المكتب الخاص لرئيس ألمانيا الديمقراطية « فيلهيلم بيك » •

٤ — « هانز مالى » كان عمره آنذاك ٣٣ عاما لم يفقد طبيعته الحيوية ، رغم نشاطه الطويل فى « الجهاز » فلا زال فى استطاعته أن يضحك وأن يكون مرحا ، وأن يتحدث مع « الناس العاديين » وكان

عنده بجانب رطانته الحزبية (أى ترديد كلام زعماء الحزب) كلمات من تفكيره الخاص ، وشعوره الشخصى .

كان من أكثر أعضاء مجموعتنا عاطفة ، ولطفا ، لأنه لم يكن جامدا فى عمله ، ولا متصنعا فى المعاملات الانسانية . كان يتجاوب مع الأحداث ، والأشخاص تفاعلا ذاتيا ، ولهذا ظل قادرا — وكان ذلك طبعا محصورا فى المجال المرسوم — على المبادرة الذاتية ، وابداء الأفكار الخاصة . تولى فى صيف عام ١٩٤٥ م رئاسة اذاعة برلين الشرقية ، ثم فيما بعد رئسة كل اذاعات المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى . وفى بداية عام ١٩٥١ م هوى الى قاع سحيق ، ثم ظهر فيما بعد فى مركز متواضع نسبيا ، وهو رئيس هيئة تحرير جريدة شعبية فى مدينة « شفيرين » .

٥ — « جوستاف جونديلاخ » من هامبورج كان أكبر المجموعة سنا ، فقد كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٨ عاما . كان يتصرف كقيادى ، عامل شريف تعب كثيرا فى تثقيف نفسه . لم أره مسرورا الا نادرا كـ« هانز مالى » تقريبا . كان صامتا منطويا على نفسه لا يبوح بشىء لم يكن هدوءه ثقيلا مبالغا فيه ، كما هو حال « جيينتر » ولا باردا مهددا كما هو حال « فينسر » كن « جوستاف جونديلاخ » مجتهدا صبورا فى العمل ، يعتمد عليه .

عين « جونديلاخ » فى صيف عام ١٩٤٥ م رئيسا للادارة المركزية للخدمات الاجتماعية والعمل فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، غير أنه أرسل فى ابريل عام ١٩٤٦ م الى هامبورج مسقط رأسه ، ليساند الحزب الشيوعى فى ألمانيا الغربية فأصبح بعد ذلك بوقت قصير عضوا فى برلمان هامبورج . ثم انتقل اليه فيما بعد منصب زعامة الحزب الشيوعى فى ألمانيا الغربية وفى أغسطس سنة ١٩٤٩ م انتخب عضوا عن الحزب الشيوعى فى أول برلمان لألمانيا الغربية .

٦ — « كارل مارون » كان عمره آنذاك ٤٤ عاما ، عرفته أثناء عملى معه فى هيئة تحرير جريدة « ألمانيا الحرة » ، وكنا متفاهمين جدا .

أصبح « مارون » بمرور الوقت ، مهيبا وقورا فقد كان من النادر جدا أن يتخلى عن هدوئه . كان يتجاوب سريعا مع الظروف المتغيرة ، ومع أماكن العمل المختلفة ، وعنده نظرة عملية فى جوهر الأشياء . كان

لطيفا ويتمتع بمزاج معتدل غير أنه يمكن أيضا أن يثور ، ويزمجر ، ولكنه سرعان ما يهدأ ويسكن ، ساعدته هذه الصفات على أن يكون محبوبا فى معظم الأحوال .

كان تعدد مواهبه مدهشا ! فبعد نشاطه فى مجالات الرياضة سنين عديدة ، عمل فى تنظيم اللجنة الوطنية ، وكان يكتب التحليلات العسكرية . أصبح فى يونيو ١٩٤٥ م وكيلا لعمدة برلين وفيما بعد رئيسا لمجموعة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى البرلمانية فى برلمان مدينة برلين ، وفى نوفمبر سنة ١٩٤٨ م مستشارا للشئون الاقتصادية فى مجلس المدينة الاستشارى فى برلين الشرقية وفى نوفمبر سنة ١٩٤٩ م نائب رئيس هيئة تحرير الجريدة المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى « ألمانيا الجديدة » وأخيرا جنرالا مفتشا ، ورئيس الادارة المركزية للشرطة ، اذ من الممكن ، بل من المحتمل جدا أن « كارل مارون » تطور أثناء تسلقه سلم المناصب ، الى ذلك الطراز الذى يمثله بالضبط « أولبريخت » و « جيبتنر » و « فينسر » .

٧ — « فالتر كوبى » كان عمره آنذاك ٥٣ عاما أصلع ، قصير ، وممتلىء الجسم . مسقط رأسه برلين ، لم يزل يتكلم باللهجة البرلينية . وعلى الرغم من منظره وسنه فقد كان نشطا بطريقة مدهشة ، ولكن معلوماته فى المسائل السياسية أو النظرية كانت قليلة جدا . أصبح « فالتر كوبى » — وهو الضعيف فى الشخصية وفى المسائل السياسية — فى يونيو عام ١٩٤٥ م الرئيس الثانى للحزب الشيوعى الألمانى فى برلين ، حيث يعمل رسميا كـ« سكرتير التنظيم » ولكن سرعان ما عزل من هذا المنصب . كان يحكى للقياديين فى برلين أثناء وقت العمل عن تجاربه السابقة بدلا من أن يأمرهم بانجاز العمل المكلفين به . ثم عين فى عام ١٩٤٧ رئيس ادارة الخدمات فى مدرسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى « كارل ماركس » وهو منصب يتطابق تمام المطابقة مع « فالتر كوبى » الموهوب فى ادارة التنظيمات ، والعملى فى التفكير . ثم أصبح بعد ثلاثة أعوام رئيس ادارة الخدمات فى « أكاديمية الادارة » ولا يزال يتولى هذا المنصب حتى الآن .

٨ — « فريتس ارين بيـك » ، من « ماينس » كان عمره آنذاك ٤٨ عاما ، كان صحفيا وكاتبا شيوعيا ، وهو الوحيد من هذه المجموعة الذى لم « يثبت فى مكان » بعد عام ١٩٤٥ م ، ولم يتول منصبا معينا .

انهمك فى الكتابة بكل جوارحه ، وأنتج كثيرا ، وكان « فى كل مكان » ! مع مؤتمرات هيئات تحرير الجرائد والمجلات ، ومع جمعية الثقافة ، وفى النشاط المسرحى ، يشارك فى النقاش الذى يدور حول الأقلام وحول الفن التشكيلى • كان يشعر فى هذا الوسط بالارتياح وبالثقة فى نفسه ، فهو نشط ، متفتح ، مثقف ، جذاب ، ولكن كلما رسخت أقدام النظام الحاكم فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى ، كلما كان الاستمرار فى مثل هذه الحياة صعبا •

٩ — وأخيرا يجب تقديم نفسى •

كنت أصغر « مجموعة أولبريخت » سنا ، اذ كان عمرى آنذاك ٢٣ عاما • كنت الوحيد الذى لم يباشر نشاطا فى الحزب لفترة طويلة •• ربما اختارونى فى « مجموعة أولبريخت » ، لأنى نشأت فى الاتحاد السوفييتى ، ولأمثل الشباب الذى — وهذا ابعاد بكثير مما فى الغرب — يدفعونه غالبا الى الأمام ويولونه فى سنى عمره الأولى مناصب هامة • وربما أرادوا اعداد صف ثان للحزب الشيوعى الألمانى ، وكنت ترى هذا الاتجاه واضحا من العدد الكبير نسبيا من الشباب فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • وربما اختارونى لأنى على الاقل — كنت عضوا فى منظمة الشباب مدة خمسة أعوام ، وتخرجت من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • كنت مهتما بالسياسة جدا ، وكنت أطمح — كما يعبر عن ذلك فى الاتحاد السوفييتى — فى تشكيل نفسى سياسيا ، وبالاضافة الى هذا ، فأنا أتكلم اللغة الروسية بطلاقة •• كأحد أبنائها • كان أعضاء المجموعة الآخرين يفهمون الروسية ، ولكنهم كانوا يتكلمونها بصعوبة ، ويخطئون كثيرا فيها •

١٠ — كان آخر ما فى مجموعتنا شاب صغير السن ، ألحق بالمجموعة لا بصفته عضوا سياسيا ، بل سكرتيرا فنيا • كان هادئا وصامتا (يشبه فى صمته رئيس الشرطة) لا يشارك فى أحاديثنا الا نادرا ولكنه كان يقوم بعمله خير قيام • قابلته فيما بعد عندما كان رئيس مكتب فى الادارة المحلية فى « بوتسدام » •

كان هؤلاء العشرة أعضاء « مجموعة أولبريخت » أول اللاجئين السياسيين الألمانيين ، الذين عادوا الى المنطقة الألمانية التى احتلتها الجيوش السوفييتية ، وكلفوا باعداد الجوسياسيا للتطورات المقبلة •

* * *

فى الطائرة الى ألمـــانيا

مرت الساعة الأولى فى الطائرة دون أن يتلفظ أحد بكلمة ، كانت الأوامر واضحة لنا وضوحا لا يحتاج معه « أولبريخت » الى اعادتها مرة أخرى • ولم يجترىء أحد أن يسأل عن عملنا المقبل أو عن مصيرنا الذى نتوجه اليه الآن ولو سألنا لمـــا حصلنا على اجابة منه ، وبالاضافة الى هذا ، فقد كنا جميعا نعلم أنه لا يجوز لأحد القاء مثل هذا السؤال •

عندما طرت فى ذلك اليوم ، يوم ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٥ الى ألمـــانيا ، كانت عندى النية الصادقة فى أن أعمل كل ما فى طاقتى ، لتنفيذ الأوامر الصادرة الى من الحزب على الوجه الأكمل •

اعتقدت أن الاتحـــاد السوفييتى سيساعد المناهضين للفاشـــية والديمقراطية من الألمـــانيين بعد القضاء على جيش « هتلر » فى بناء دولة ألمـــانية ديمقراطية • ألم يبرهن — هكذا قلت لنفسى — بمساندته اللجنة الوطنية ، على أنه يهتم بأن تبنى القوى الألمـــانية بنفسها دولة ألمـــانية مستقلة ؟ أليس هذا دليل على أن الاتحاد السوفييتى لم يقم بدور المحتل ، بل قام بدور السلطة التى أبدت استعدادها لمساعدة الألمـــانيين المناهضين للفاشية فى كفاحهم ضد النازيـــة ؟ ألم يفرق « ستالين » نفسه — مرارا — بين الشعب الألمـــانى ، وبين دولـــة « هتلر » ؟

كنت آنذاك بعيدا جدا عن أن تكون الأفكار المعارضة فى ذهنى ورغم هذا فلم أكن أيضـــا من القياديين المتعصـــبين للـ« ستالينية » الذين يتنازلون عن أفكارهم الذاتية ، ويرون — دون استثناء — أن كل ما يخدم الاتحاد السوفييتى فهو صحيح وضرورى • كنت بلاشك مستعدا آنذاك أن أنفذ كل الأوامر ، ولكن كنت أنظر بتفكيرى الخص الى الحوادث السياسية والى التغيير المفاجىء للاتجاهات •

رأيت ، وقاسيت كثيرا أثناء العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى • كانت هناك قرارات واتجاهات أعجبتنى ، وكانت تبدو منسجمة مع النظرية « المـــاركسية » ولكن كان هناك أيضا اجراءات رفضتها ، ولم أستطع التخلص من شعورى بأنها كانت متعارضة مع

« الماركسية » وأحيانا وجدت أشياء لم تتضح لى فأزعجتنى ، وأشياء استنكرتها فرفضتها .

فكرت كثيرا وبعمق فى موجة التطهير الواسعة التى استمرت من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م ، وفى السلطة المطلقة لجهاز المخابرات السوفييتية . كنت أشك دائما فى مبررات عقد معاهدة مع ألمانيا الهتلرية وفى « ضرورة » الحرب الفنلندية . أتذكر مشمئزا ومستنكرا ، كيف انهال سيل القطارات ذات الأعداد الكبيرة من العربات الى موسكو وهى محملة بالأسلاب والغنائم بعد احتلال شرق بولندا عام ١٩٣٩ م واحتلال دول البلطيق عام ١٩٤٠ م . وأكثر من هذا ، أتذكر القوانين المعادية للعمال فى عام ١٩٤٠ م . وكبت حرية الآراء المستقلة عن الحزب ، والصيغة الفظيعة للنقد والنقد الذاتى .

كنت أحاول دائما تبرير هذه الأشياء لنفسى : أخيرا انتصرت الاشتراكية فى دولة متخلفة ، ولا تنسب هذه العيوب والمثالب الى النظام ، بل سببها أن المؤثرات المتخلفة عن التخلف العام لروسيا القديمة لا زالت تعوق التطور الحر .

فى ذلك الوقت ، عندما غادرت الاتحاد السوفييتى وفى فكرى واجبات جديدة أخرى . كنت قد « تقدمت خطوة » فى هذا الاتجاه . كنت آمل من كل جوارحى فى استقلال نسبى فى التطور السياسى لألمانيا ، آمل فى أن يكون لها الحق فى أن تطبق بعض الأشياء بأسلوب آخر ، مغاير لما هو فى الاتحاد السوفييتى وبالاضافة الى ذلك فقد اعتقدت أنه بعد نهاية الحرب مباشرة سيحدث أيضا فى الاتحاد السوفييتى تغيير فى النظام فى اتجاه أكثر حرية .

هكذا كنت — رغم كل الأفكار المعارضة — متفائلا ، ومملوءا بالأمل وأتعجل البدء بالعمل السياسى الجديد .

هبطنا بعد ساعة طيران فى « مينسك » عاصمة جمهورية روسيا البيضاء السوفييتية . كانت هذه المدينة من أكثر المدن تدميرا من آثار الحرب فى الاتحاد السوفييتى ، فلم نر — ونحن فى المطار — سوى أنقاض ، كانت صورة فظيعة تثير المشاعر شجونا وحزنا .

وبعد هبوطنا هبطت طائرة ثانية بجانبنا ، ونزل منها أيضا عشرة أشخاص ، يرتدون ملابس تشبه ملابسنا . نظروا نحونا باهتمام . قال واحد من مجموعتنا — يبدو أنه يعلم أكثر منى — : هؤلاء كانوا

أسرى حرب ، وهم الآن خريجو مدرسة المناهضين للفاشية ويطيرون الى ألمـانيا ، والى المنطقة التى يسيطر عليها المـارشال « شوكوف » .

وقفوا أمام طائرتهم ، ووقفنا أمام طائرتنا .

ـ « هل يمكن أن نحييهم » ؟

ـ « الأحسن لا ! لقد قال « أولبريخت » يجب أن نبقى منعزلين عنهم » .

ظللت صامتا ، ولكن طافت بذهنى أفكار الزندقة عن الانقسام فى هذه الحالة ، اما ـ هكذا قلت لنفسى ـ انهم لا زالوا أسرى حرب ، فلا يرسلون بملابس جديدة الى ألمـانيا للقيام بواجبات سياسية خاصة ، أو يعتبروا رفقاء فيجب أن يعاموا معاملة الرفقاء . وفسرت ذلك بأنه تصرف غير سليم من أحد مراكز التوجيه . وفى الحقيقة كان ذلك تأكيدا للتدرج الطبقى الذى هو طابع « الستالينية » .

تعرفت فيما بعد على اثنين من هؤلاء الأشخاص العشرة الذين كانوا فى « الطائرة الثانية » ، « باول ماركجراف » عقيد سابق وحاصل على نيشان « الصليب » بعد أن تخرج فى مدرسة المناهضين للفاشية ، وأرسل الى برلين ، عينته السلطات السوفييتية رئيس شرطة برلين .

أما الثانى فهو « ماتيوس كلاين » قسيس سابق ، انضم الى اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » واشتغل هنا فى « أنشطة الكنيسة » ولكنه كفر بعقيدته فيما بعد وأصبح « ستالينيا » وتولى بعد عام ١٩٤٥ م رئيس قسم شئون العاملين فى اذاعة برلين الشرقية ؛ ثم معيدا للفلسفة فى معهد الحزب العالى « كارل ماركس » ثم مدرسا للعلوم الاجتماعية فى جامعة « بينا » .

استأنفنا رحلتنا بعد بضعة دقائق ، ولم نعلم بعد أين سنهبط بالضبط ، واستمر توتر أعصابى فى ازدياد .

وبعد نصف ساعة طيران تقريبا هبطت الطائرة فى مطار صغير ، يبدو أنه أعد لهبوط الطائرات العسكرية الاضطرارى .

لم نر شيئا على مدى الأفق حولنا ، فلا مدينة ، ولا مبنى ، لا شىء يدل ـ ولو دلالة بسيطة ـ على أن فى هذا المكان انسانا يعيش . قال لنا « أولبريخت » :

« نحن الآن بالقرب من الحدود البولندية ـ الألمـانية الجديدة بين فرانكفورت التى على نهر « أودر » وبين « كوسترين » .

وقفنا حائرين ، فلا أحد يعلم ما سيحدث ، ولكن وصلت عربة بعد بضعة دقائق ، واتجهت نحونا ثم نزل منها ضابط سوفييتى ، فحيا « أولبريخت » بحرارة • بدا وكأنه يعرفه من قبل • قال لنا الضابط :

« كل شىء على ما يرام ؛ ستستأنفون رحلتكم بسرعة • لقد جئت توا من برلين وسأعود اليها حالا أيضا » •

ثم بدأ يرسم بعصاه على الرمل حصار برلين ويبين الأحياء التى وقعت فعلا فى أيدى القوات السوفييتية • كان كالحلم بالنسبة لى — سوف أكون فى برلين بعد أيام قبيلة ، برلين التى تركتها طفلا قبل ١٢ عاما •

وصلت سيارة نقل ، فخجل الضابط السوفييتى وقال :

« نكرر الاعتذار أيها الرفقاء الأجلاء ! لأننا لم نستطع الحصول على عربة لتوصيلكم الا عربة النقل هذه ، وستنقلكم فقط الى المحطة التالية ، وهناك ستحصلون على عربات خاصة » •

لم نر انسانا واحدا فى القرى التى مررنا عليها فى أول طريقنا ، فاما أن تكون المنازل قد هجرت ، أو أن ساكنيها لا يجرأون على الخروج منها •

كان يرفرف على بعض المنازل أعلام بولندية باللونين الأحمر والأبيض — ربما كانت نقط اتصال السلطات البولندية — نحن الآن على مسافة قريبة جدا من خط « أودرنايسى » توقفنا بعد ساعتين تقريبا فى قرية صغيرة أمام مركز قيادة سوفييتى فحيانا ضابطان سوفييتيان ودعونا لتناول الغداء • كان كل شىء معدا اعدادا طيبا ، وبدا كأنهم يسرون بدعوة الضيوف • لاحظنا أنهم يرغبون فى الحديث معنا اذ قال أحد الضباط مبتسما : أرجو أن يكون الطعام قد أعجبكم ، يا ضيوفنا الأعزاء ، نحن نسر دائما اذا كان عندنا ضيوف أجانب ، فقد كان عندنا فى الأيام الماضية ، ضباط بولنديون • ونحن مسرورون الآن جدا لوجودكم بيننا ، فقد سمعنا أنكم أعضاء الحكومة الألمانية الجديدة •

كدت أغص ! ماذا تقال ؟ حكومة ألمانية جديدة ؟

جلس « هانز مالى » بجانبى فتبادلنا النظرات مندهشين • ماذا ينبغى أن نعمل الآن ؟ لا نستطيع تركه يعتقد أننا أعضاء الحكومة الألمانية الجديدة ، غير أننا لا يمكننا أيضا أن نقول له اننا أعضاء « مجموعة أولبريخت » •

نفى أحدنا هذه الفكرة باشارة من يده ، وأفهمه بطريقة مؤدبة

أننا لسنا أعضاء حكومة ألمانيا الجديدة • فقوت هذه الطريقة اعتقاده ففهم أن هذا النفى ليس الا أدبا منا فقط • وعندما خرجنا من مقر القيادة وجدنا عربات أمريكية وألمانية فى انتظارنا ، وعليها الأعلام السوفييتية الحمراء ، كذلك كان السائقون يرتدون الملابس الرسمية السوفييتية •

وصلنا الى « كوسترين » وهى المدينة التى ظهرت فى البلاغات الحربية السوفييتية باسمها السلافى القديم « كوسترتسين » كانت « كوسترين » عبارة عن أكوام من الأحجار ، فلم أر هذه الصورة من قبل قط ، لا فى الصور التى نشرت ، ولا فى لقطات الأفلام الاخبارية • لقد كان منظرا مؤلما •

توقفنا بعضا من الوقت ، فتبادل « أولبريخت » بعض الكلمات مع الضباط السوفييت المرافقين ، الذين أعطوا بعض التعليمات للسائقين ثم واصلنا السفر •

ثم سألت السائق : « الى أين نتجه » ؟

— « نحن نتجه الى الغرب » •

ماذا يأتى به الغد ؟ لم أكن أتوقع أن أتحدث مع « ألمانى أصيل » عاش هنا طول حياته ، أو أن أرى برلين مرة أخرى ، حيث قضيت فيها طفولتى وأرى مدرستى ، وشارع « جراف هيزيلر » وشارع « كارل ماركس » فى حى « نويكولن » وقبل هذا كله حى الفنانين عند ميدان « لاوبن هايمر » فى حى « فيلمر سدروف » وسرعان ما انقطعت أفكارى عندما سمعت السائق يقول : « لقد وصلنا » نوجد الآن فى مدينة ألمانية صغيرة مزخرفة ، تبعد عن برلين بحوالى ٣٠ كيلومتر شرقا • انها « بروخميلى » •

* * *

« بروخميلى » المركز السياسى لجيش « شوكوف »

كانت « بروخميلى » فى تلك الأيام فى وضع آخر ، فقد تمركز فيها القسم السياسى لجيش المارشال « شوكوف » وكان يرأس هذا القسم الجنرال « جلادشييف » رئيس الادارة السياسية لجيش المارشال « شوكوف » فى ذلك الوقت •

أخليت المنطقة من القوات الأخرى ، أما سكان هذه المنطقة الصغيرة فقد انزعجوا فى بادىء الأمر عند دخول القوات اليها ، ولكنهم يعيشون الآن — على الأقل لمدة أسابيع قليلة — فى جو أحسن من غيرهم ، سكان المناطق الأخرى • كان من النادر أن نرى فى هذه المدينة جنديا بسيطا ، فقد كانوا كلهم ضباطا من الرتب العالية ، تابعين لقسم « جلادشييف » ويتحدثون كلهم تقريبا اللغة الألمانية ، وكانت مهمتهم محاولة اقامة اتصال مع السكان • ويوجد هنا أيضا هيئة لتحرير المنشورات باللغة الألمانية وتصدر من هنا كل توجيهات الخط السياسى الجديد ، الذى التزم بتنفيذه كل القياديين السياسيين فى كل وحدات الجيش بعد أن نشرت « برافدا » قرار ادانة « ايرينبرج » •

ظهرلى فى الأسابيع التالية أن « الخط الجديد » جاء متأخرا ، فلم يكن فى امكان القيادى السياسى الجنرال « جلادشييف » مواجهة دعاية « ايرينبرج » والقضاء عليها ، وهى التى تشعبت فى كل وحدات الجيش منذ سنوات •

استقبلنا — بعد الوصول بفترة قصيرة — العاملون مع الجنرال « جلادشييف » ولما كان المساء قد أزف ، فقد أجلت المناقشة معنا الى اليوم التالى • نزلنا فى منزل جديد ، بعد اخلائه اخلاء تاما •

كنت فى اليوم التالى — وهو يوم ٢ مايو ١٩٤٥ ، وكان ربيعيا جميلا — مسرورا جدا بدرجة لم تحدث لى قط : أخيرا عدت الى ألمانيا ! لم أر بعد ما يحزننى ولم أعلم شيئا بعد عما يدور فى هذه الأيام والساعات فى ألمانيا • كنت فى ألمانيا وفى الوقت نفسه لم أكن فى ألمانيا : لم أر من ألمانيا حتى هذا الصباح سوى شوارع جميلة ، ومنازل مزخرفة ، وأجانب محررون ، وقيادة ترحب بضيوفها ترحيبا حارا ، وما عدا هذا لم أر شيئا •

دعينا الى اجتماع فى الصباح ، فأعطى ضابط سوفييتى كل واحد منا ورقة ، فأدركت من النظرة الأولى أنها وثيقة هامة ، وقيمة جدا موقع عليها من المارشال « شوكوف » والجنرال « جلادشييف » وتقول هذه الوثيقة : أن « فولف جانج ليونهارد » يعمل فى الادارة السياسية الرئيسية فى المناطق التى تحتلها قوات الـ (I. Bjelorussischen Front)

---

(١) كان هذا هو الاسم الرسمى للقوات التى تحت رئاسة المارشال « شوكوف » •

ثم دعينا فى « كازينو » ضباط الادارة السياسية الرئيسية • رأيت هامش الوثيقة التى أخذتها من الضابط أننا سنعامل فى الطعام وخلافه معاملة ضابط برتبة رائد • حصل كل واحد منا فى الدقائق الأولى على « خرطوشة » سجائر ، وقدم لنا أحد الضباط نفسه بأنه مكلف من الادارة السياسية بتحقيق رغباتنا •

سافر الرفيق « أولبريخت » — بعد محادثة طويلة مساء أمس مع الجنرال « جلادشييف » — فى صباح اليوم الباكر الى برلين ، ولن يعود الا فى المساء ثم قيل لنا ان بعض الضباط المساعدين للجنرال « جلادشييف » يريدون التحدث معنا ، ويتمنون أن يكون اللقاء اليوم فى الساعة ٤ مساء •

وهكذا لم يبق لنا وقت فراغ سوى فترة الضحى ، عدت بعد الافطار الى حجرتى الجديدة ، ثم ما لبثت أن سمعت طرقا على الباب ، ثم دخلت امرأة تبلغ من العمر حوالى ٣٠ عاما ، وكان الخوف والخجل باديا على وجهها ، فقالت : أنا مكلفة بتنظيف وترتيب الحجرة ، هل تسمح لى بأن أفعل ذلك الآن ؟

« شكرا جزيلا ، ولكن فى الحقيقة أن هذا ليس ضروريا ، فأنا متعود أن أفعل هذا بنفسى » •

وعندما سمعت أنى أتحدث الألمانية بطلاقة ، نظرت الى باندهاش فقلت لها «اجلسى قليلا استريحى بعضا من الوقت » دعوتها الى الجلوس آملا أن أتحدث مع « ألمانية أصيلة » •

بدا عليها أنها لا تفهم ما يدور فى العالم : هنا يصل ألمانيون فجأة فى سيارات ، ويستقبلهم الضباط الروسيون بحفاوة ، وتقدم لهم الخدمات فى صالة الضباط السوفييت ، ويسكنون فى أحد المنازل التى استولى عليها الجيش السوفييتى ! ارتاعت من دعوتى لها للجلوس ، وبدت خائفة جدا ، ثم غادرت الحجرة بسرعة ، فتذكرت على الفور الناس فى موسكو أيام حركة التطهير من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م •

لم أفهم شيئا ، لماذا تملكها الخوف ؟ فالحرب أوشكت على الانتهاء ، وانتهت الأوقات العصيبة • كان ينبغى عليها أن تفرح • هكذا دارت بذهنى الخواطر — لم أسمع شيئا بعد عن السلب والنهب وهتك الأعراض ، وما شابه ذلك •

خرجت فى ضحى اليوم الأول لى فى ألمانيا أتجول مع « هانز

مالى » و « فريتس اربن بيك » وللأسف لم نقابل فى طريقنا سوى ضباط سوفييت • وفجأة رأينا السيدة التى تقوم بنظافة منزلنا ، ونجحنا فى هذه المرة فى الحديث معها ، وكنا نتحرق شوقا على سماع الاجابة منها : النازيون ، الحرب ، انتهاء الحرب ، الوضع الحالى ، الروسيون ، المستقبل •

ظهر أن ليس عندها ما تقوله عن النازيين والحرب • كانت — كما قالت — مسرورة لانتهاء الحرب ، ثم بدأت ترتعد : « ولكن يجب أن تعلموا أننا قاسينا كثيرا فى الأسابيع الأخيرة » •

فسألها واحد منا : « ماذا فعل النازيون معكم » ؟

فقالت : « ولكن ••• لا أعنى الآن النازيين على الاطلاق ••• يجب أن تتخيلوا ما حدث عندما جاء الروسيون الى هنا ••• » •

ثم بدأت تشرح حوادث وأعمال ، بالضبط كما سمعتها فى الأيام والأسابيع التالية عشرات ، بل مئات المرات ، بطرق وأساليب مختلفة •

انضم الينا فى هذه الأثناء « مارون » و « فينسر » ويبدو أنهما كانا يبحثان أيضا عن « ألمانى أصيل » يتحدثان معه •

استمرت السيدة فى حديثها ؛ وعندما بدأت تحكى عن هتك الأعراض ، اقشعر بدنى ودارت رأسى • هل وقعت هذه الأحداث حقيقة ؟ أصابتنى صدمة نفسية ، ولكنى اعتقدت أنها حوادث فردية مؤلمة •

وسرعان ما تطور الحديث الى مناقشة سياسية •

كان موقفا شاذا ، عندما حاول الرئيس العام (فيما بعد) لكل اذاعات المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، والجنرال المفتش ورئيس الشرطة (فى المستقبل) وكذلك رئيس هيئة المكتب الخاص للرئاسة ، محاولة يائسة للتدليل على أنه لا يجوز أن تشككنا امرأة بهذه الحكايات فى ثقافتنا السياسية التى تلقيناها حتى الآن • استمعت المرأة باهتمام وصبر الى المناقشة ، وكانت هذه هى الحالة الفريدة التى يقرظ فيها هذا العمق للعمل السياسى أمام ربة بيت ألمانية ، ولكنها لم تتزحزح عن أفكارها التى خلفتها الأحداث القاسية عندها ثم قالت بنغمة غاضبة :

« لستم فى حاجة الى أن تخبرونى بأن النازيين كانوا سيئين فأنا أعرف هذا قبل أن أسمعه منكم ؛ ولكن اعلموا أيضا أن الروسيين ليسوا أحسن من النازيين ، وسوف تلاحظون ذلك » •

فتبسم بعضنا لهذا الكلام •

ناقشنا فى طريق عودتنا الى الغداء ما قالته هذه السيدة وكانت الآراء مختلفة ، فقال واحد منا متعصب « للستالينية » :

« هذه دعاية نازية خالصة ، فهى لا شك من الفاشيين النشطين ومن المحتمل أنها عضو فى جهاز نازى سرى » .

فخفف آخر من حدة هذا الرأى :

« ربما لم تكن من الفاشيين النشطين ، فهى لا تعدو ربة ربيت غبية ، أثرت فيها الدعاية الفاشية الفظيعة » .

تأثرت جدا بهذا الحديث ، فاعتقدت أن ما قالته كان صحيحا ، وارتضيت داخليا أن السيدة قصت علينا حقيقة ما حدث . من الممكن — هكذا حاولت تهدئة نفسى — أن بعض أفراد من بعض وحدات الجيش الأحمر ارتكبوا — بعد حوادث الحرب المهولة — مثل هذه الأعمال .

تلقينا دعوة بعض الظهر من بعض كبار ضباط المكتب السياسى ، ودار الحديث على مستوى سياسى عال . ومما لا شك فيه أن الضباط السياسيين تلقوا تدريبات ودروسا عالية فى موسكو استعدادا لهذه المهمة ، فقد كانوا يعرفون تاريخ ألمانيا أحسن من كثير من الألمانيين ، وكانوا متمكنين — على الأخص فى معرفة الأحداث التى وقعت فى العصر السابق على الحرب : أحزاب الجمهورية الفايمرية ، تكوين البرلمانات ، الهيئات البرلمانية الحزبية ، أحداث الانتخابات من عام ١٩١٨ م ، وطبعا تاريخ الحزب الشيوعى الألمانى . ولكن ، هل عرفوا رأى الألمانيين فى الوقت الحاضر ؟ هل علموا ما يفكر ويشعر به الشعب الألمانى ؟ لا أعلم هذا ، فلم يذكر عنه شىء فى حديثنا الذى امتد ساعات ، فقد تحدثنا عن سياسة الأحزاب فى الماضى ، وعن مؤتمرى الحزب الشيوعى الألمانى فى « بروكسل » و « برن » وعن اللجنة الوطنية وبنوع خاص عن ضرورة « تكميل ثورة عام ١٨٤٨ م الديمقراطية الشعبية » ، وعن التطور المنتظر فى ألمانيا .

طاف بذهنى أن مناقشتنا تدور فى الهواء ، وليس لها أدنى علاقة — بل لا علاقة لها اطلاقا — بالحقيقة .

عاد « أولبريخت » فى المساء ، بعد أن قضى طول اليوم فى برلين ، ولكنه لم يحك لنا الا القليل جدا ، وقال : « سوف ترون بأعينكم » .

وعندما اجتمعنا معه ، شرح لنا أخيرا مهمتنا : ان من واجبنا تكوين الجهاز الادارى الألمانى ، سوف نذهب الى الأحياء المختلفة فى برلين ،

ونحاول البحث عن القوى لديمقراطية المناهضة للفاشية التى تناسب بناء الادارة الألمانية الجديدة ، وسيكون من الأحسن أن نقسم أنفسنا فيأخذ كل واحد منا حيا معينا • ثم نجتمع فى المساء ، حيث يقدم كل واحد تقريرا عن الوضع فى الحى المكلف به •

« متى نبدأ فى هذا العمل » ؟

أجاب « أولبريخت » باختصار : « غدا » •

غدا ! كان هذا هو يوم ٢ مايو سنة ١٩٤٥ م •

فى هذا اليوم استسلم الجيش الألمانى فى برلين •

وفى نفس اليوم بدأ نشاط « مجموعة أولبريخت » •

* * *

أول لقاء مع الشيوعيين فى برلين

انطلق رتل من السيارات الخاصة فى صباح يوم ٢ مايو من « بروخميلى » مارا بـ« كاولسدورف » و « بيسدورف » و « فريدريشفيلد » الى وسط مدينة برلين • جلس فى هذه السيارات « مجموعة أولبريخت » وبعض الضباط السوفييت من هيئة رئاسة أركان الجنرال « جلادشييف » ثم اتخذت السيارات طريقها ببطء عبر « فريدريشفيلد » فى اتجاه « ليشتينيرج » • كانت صورة فظيعة : حرائق ، خرائب ، أناس جائعون هائمون على وجوههم ، وليس على أجسامهم ما يسترهم سوى خرق بالية ، جنود ألمانيون حائرون ، لم يفيقوا بعد من هول ما حدث • أفراد قوات الجيش الأحمر يغنون ويرقصون ، وبعضهم يتمايل من شدة السكر ، مجموعات من النساء ، تقوم بازالة الأنقاض • تحت مباشرة جنود الجيش الأحمر ، طوابير طويلة من البشر ، يقفون صابرين متحملين أمام طلمبات المياه : ليحصلوا على دلو (جردل) ماء ، يرتدون خرقا بالية ويبدو عليهم البؤس والانهاك والجوع وتوتر الأعصاب — لقد كان منظرا متناقضا تمام التناقض مع ما رأيته فى المدينة الصغيرة الواقعة شرق برلين — وضع كثير من الناس أشرطة بيضاء على أذرعهم علامة على الاستسلام ، أو أشرطة حمراء تحية للجيش الأحمر ، وكان يوجد بعض الناس الذين كانوا حذرين جدا : حملوا شريطا أبيض وآخر أحمر • ورفرف على نوافذ المنازل الأعلام البيضاء — علامة الاستسلام — أو الأعلام الحمراء . وكانت تبدو أنها مأخوذة من أعلام نازية سابقة •

أشار لنا الضابط المرافق ، لنسير فى طريق يؤدى الى حكمدارية « ليشتينبرج » التى اتخذت فى بادىء الأمر منزل سكنى مقرا لها • حيانا الضابط تحية قصيرة ، فقد كان مشغولا بأشياء كثيرة فى يده • ضباط يخرجـــون • وآخرون يدخلون حاملين تقارير قصـــيرة — بأسلوب التلغرافات — عما يحدث فى الحى • وعندما دخلنا الى الحجرة كان ضابط سوفييتى ثائرا ومزمجرا من تصرف بعض الجنود السوفييت ، يسبهم ويلعنهم وهكذا سمعت أول شكوى من تصرف جنود الجيش الأحمر فى برلين — من الجانب السوفييتى — • كان الحكمدار مسرورا جدا من « مجموعة أولبريخت » لأنه رأى فيها مساعدا ومعينا على بناء الادارة الألمـــانية •

« ادارة ألمـــانية ؟ لا ! •• لم نكونها بعد ؛ ولكن نرجوكم أن تجيئوا هنا غدا أو بعد غد لتساعدوننا على تكوينها » •

فوافق « أولبريخت » •

استأنفنا رحلتنا بعد وقت قصير ، بعد أن قرّر « أولبريخت » أن يعمل كل اثنين من مجموعتنا معا • اتجهوا الى أحياء « كرويتسبيرج » و « تريبتوف » و « تيمبيلهوف » وأحياء أخرى ؛ وبقيت أنا وحدى • « الى أين أذهب » ؟

فقال « أولبريخت » : « ستبقى معى ، سنذهب معا الى « نويكولن » توقفنا بعد نصف ساعة أمام مبنى ضخم • صـــعد « أولبريخت » الســـلم هادئا مطمئنا ، كما لو كان من الأمور المسلم بها جدا أن يزور ادارة ألمـــانية فى ٢ مايو ١٩٤٥ م بعد غياب اثنتى عشرة سنة • لم يكن عندى هذا الاطمئنان •

لم يكن موجودا من كل موظفى حى « نويكولن » سوى واحد فقط • قدم نفسه لنا باسم « باجل » وشرح لنا باختصار ما فعله حتى الآن • وجد الجهاز الادارى الألمـــانى نفسه فى حالة ميئوس منها ، فقد كان الوضع يتعلق بالمستشفيات والمياه والتيار الكهربائى ، والفحم والعمل لاخلاء الشوارع من الأنقاض واستخراج الأوراق الرسمية ولكن كان الواجب الضرورى هو : المواد الغذائية لسكان برلين الجائعين •

دون « أولبريخت » — وأنا كذلك — ملاحظات ، ثم تحول الحديث بعد نصف ساعة ببطء الى الموضوعات السياسية فأنصت « باجل » بكل جوارحه ثم قال : « لا مؤاخذة ! من فضلك ! من أنتم بالضبط » ؟

« فالتر أولبريخت » عضو سابق فى برلمان الجمهورية الفايمرية وأعمل الآن فى هيئة اعادة تكوين الجهاز الادارى فى برلين » .

أطلعنا « باجل » الذى قدم نفسه على أنه عضو فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى — على قائمة بأسماء المناهضين للفاشية فى حى « نويكولن » من الديمقراطيين الاشتراكيين ومن الشيوعيين ، الذين يجب الاستعانة بهم فى الادارة قائلا :

« ربما يهمك هذا ، هذه هى قائمة الشيوعيين النشطين فى « نويكولن » . نظر اليها « أولبريخت » نظرة سريعة ، ثم قال بصوت كسول :

« لا .. أنا مهتم فقط بالادارة » ثم ودعناه وانصرفنا .

انطلقت السيارة بعد أن قال « أولبريخت » للسائق عنوانا .

« الى أين نذهب الآن » ؟

ضحك « أولبريخت » ضحكة فاترة ثم قال :

« الى الرفقاء طبعا ، فقد احتفظت فى ذاكرتى بعنوانين من القائمة » فتعجبت ! فلم أزل عاميا فى هذا المجال .

حاولت أثناء الطريق أن أرسم فى ذهنى صورة عن الشيوعيين الذين قاموا بنشاط سرى سنين عديدة فى ألمانيا . لقد قرأت عن كفاحهم فى القصص المناهضة للفاشية ، وفى تقارير الرفقاء . والآن ! أتحرق شوقا الى اللقاء مع « رفيق ألمانى حقيقى » .

أمر « أولبريخت » السائق أن يتوقف أمام باب مفتوح لأحد المنازل المصابة من آثار الحرب فى « نويكولن » فسمعنا أناسا يتناقشون بصوت عال داخل المنزل . طرقنا الباب ثم دخلنا ، كان بعضهم منهمكا بجوارحه فى المناقشة ، لدرجة أنهم لم يلحظوا دخولنا .

وفجأة قفز بعضهم صائحا بصوت عال : « أولبريخت » استقبلوه بالأحضان ، وانعكست المفاجأة والفرحة على وجوه الرفقاء ، ولكن « أولبريخت » بقى حتى فى هذه اللحظة صارما عمليا (١) .

حياهم — لاحظت أن تحيته كانت باردة — ثم قدمنى لهم على أنى زميل له فى العمل ، ثم استؤنف النقاش بعد دقيقة أو دقيقتين ولكنها الآن بقيادة « أولبريخت » .

---

(١) أى لم يتأثر بعواطف اللقاء . م . شامة .

والآن .. عندى فرصة للتأمل فيما حولى : كنا فى حجرة بسيطة فى شقة أحد العمال • على المنضدة « لمبة » جاز — لم يوجد فى هذا اليوم تيار كهربائى — وجلس اثنا عشر رفيقا فى الحجرة بعضهم على كنبة وبعضهم على كراسى ، والباقى على الأرض •

كان الجو مغايرا تمام المغايرة لجو منظمة الشباب السوفييتية وللاجتماعات الحزبية فى الاتحاد السوفييتى • سيطر على شعور يشبه ما تصورته فى الاجتماعات التى عقدت فى عصر ثورة أكتوبر والحرب الأهلية فى روسيا ، وما كنت أتمناه ، دائما للاجتماعات الحزبية • كنت أحس هنا حماسا صادقا ، مقترنا بواقعية سليمة ، فهم الرفقاء دون أن ينتظروا تعليمات من مستويات عليا أن المسألة المهمة الآن هى تنظيم توفير المواد الغذائية ، والمياه ، وتوفير الضروريات الملحة للشعب ، واعادة تكوين الادارة للخروج من حالة الاضطراب العامة والجوع •

جاءت الاقتراحات واضحة وقصيرة من كل الجوانب ، ثم نوقشت ، وأحيانا كانت تستبدل باقتراحات أخرى الى أن يتوصلوا الى قرار فى الموضوع المطروح للمناقشة ثم دون أحدهم التفصيلات : أسماء الرفقاء المراد البحث عنهم للاستفادة بهم ؛ تجنيد القوى العاملة لتفريغ المواد الغذائية وتوزيعها ؛ الاتصال بالمهندسين والفنيين ، لاعادة النور والمياه الى حالتها الطبيعية ؛ قيادة العمل لازالة الأنقاض ، واستخراج البطاقات الشخصية • بدون قائمة الأوامر والتعليمات ، وبدون صياح ، وبدون عبارات ، بدون هذا كله أنهى فى نصف ساعة ، ما يحتاج الى اجتماعات لا نهاية لها فى الاتحاد السوفييتى .. لم يعجبنى فقط تصرف « أولبريخت » وطريقته وأسلوبه ، فى معاملة الرفقاء الآخرين ، فبينما أقنعتنى الدقائق الأولى فى هذا اللقاء الحزبى المرتجل ، بأننا يجب علينا نحن القادمين من موسكو وليس عندنا فكرة عن الوضع أن نسمع لما يقوله هؤلاء ، تصرف « أولبريخت » كما لو كان رئيسا تجب له الطاعة •

انتقل الحديث — دون قصد — من الواجبات الضرورية الملحة ، الى المسائل السياسية — والى نضال الرفقاء فى عهد النازيين ، والى الاتجاه السياسى العام فى الوقت الحاضر والمستقبل • وعندما تناول الحديث تصرف الرفقاء تيقظ « أولبريخت » وألقى سؤال وراء آخر : كيف تصرف هذا ؟ وكيف تصرف ذاك ؟ أين كان ... ؟ ماذا فعل .. ؟ • أسماء لا حصر لها كان يحفظها « أولبريخت » كلها فى ذاكرته (تعجبت

فيما بعد من قدرته الخارقة على حفظ الأسماء) • لم أتوقع هذه الأسئلة ، فهى وان كانت لا تشبه تحقيقات الشرطة الا أنها ليست بالنغمة التى كنت أنتظرها من لاجىء سياسى يتقابل بعد اثنتى عشر عاما بمن بقوا على قيد الحياة من الذين قاسوا سنين عديدة من جبروت « هتلر » • وعندما شرح أخيرا الخط السياسى الجديد ، وضعه بنغمة لا تسمح بمعارضة ، وبأسلوب يمنع كل شك فى أنه هو — لا الشيوعيين فى برلين — الذى قام بأعمال سرية تحت ظروف صعبة ، وأنه هو الذى يرسم سياسة الحزب •

فكرت فى طريق العودة فى هذا اللقاء الأول مع الشيوعيين الألمانيين ، ألا يوجد نوعان من الشيوعيين ؟ لم أقابل حتى اليوم — باستثناء عدد قليل — سوى قياديين جامدين فى تصرفاتهم ، يكررون شعارات الحزب دائما • كيف ظهر لى هؤلاء الشيوعيون الذين تعرفت عليهم فى هذا المساء ، فهم على الضد من الشيوعيين الذين تعرفت عليهم سابقا — أناس « عاديون » فيهم حيوية مع واقعية ، ممتلئون حماسة ، ومستعدون للتضحية •

انعقد اجتماع فى المساء ، بعد أن عاد جميع أعضاء « مجموعة أولبريخت » الى « بروخميلى » فشرح كل واحد باختصار ما شاهده ، وتلقى سكرتيرنا الفنى أول عمل له : نسخ محضر الاجتماع فى عدد من النسخ ، حتى يكون عندنا من البداية تقارير مفصلة عن كل حى فى برلين •

كان الاجتماع الأول غير حازم نسبيا ، ولكن ابتداء من اليوم التالى بدأ العمل المنظم ، فكل حى فى برلين يجب أن يمر عليه رفيق أو رفيقان ، وبعد بضعة أيام نتبادل زيارة الأحياء مع بعضنا • وكنا مكلفين أولا بمعرفة الحالة العامة ، والبحث فى أحياء برلين كلها عن الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين ، والمستقلين المناهضين للفاشية ، وعمل تقرير عن كل ما يتعلق بهم لكى تعد قائمة بأسمائهم ونقترح على حكمدارية الحى الاستعانة بهم فى الادارة • كذلك وجب علينا البحث عمن يمكن أن يعين عمدة للحى ونائبه ، ونقترح اسميهما لحكمدار الحى •

بدأنا العمل بحماس باحثين عن المناهضين للفاشية ، اللازمين للادارة ، وكان فى استطاعتنا فى هذه الحالة الاستعانة بالقياديين الذين كانوا يعرفون « أولبريخت » وعدد آخر من مجموعتهم السابقة وبقائمة الأسماء التى كان يبعثها الينا كل يوم الضباط المسئولون عن الأمور السياسية فى مركز حكمدارية الحى •

قال لى « أولبريخت » فى مساء اليوم الأول : « خذ ! هذه قائمة ، ابحث فيها ، واختر أسماء من تحتاج اليه منها » .

نظرت فى القائمة ، فقرأت فى أولها :

« فولف جانج هاريش » برلين ، حى « دالم » شارع « بودبيلسكى » رقم ١ . ظل هذا الاسم محفورا فى ذاكرتى دائما .

سافرت فى اليوم التالى الى برلين . تعرفت بالأمس على الأحياء الشرقية فى برلين واليوم أتجه الى الغرب ، الى ذلك الجزء الذى لا زلت أذكره من أيام طفولتى ، وعندما اقتربنا من ميدان « برايتنباخ » رأيت على بعد حى الفنانين عند ميدان « لاوبينهايم » . اذن ، يجب أن أراه رغم كل الأوامر الحزبية .

— « هل يمكنك أن تتجه هنا على الشمال » ؟

— « بكل سرور » .

وقفت العربة أمام المنزل رقم ١٢ فى شارع « بون » أمام المنزل الذى سكنت فيه وأنا طفل . شعرت بالذنب . لم آت الى هنا لأعيد الذكريات . كان المنزل مصابا اصابة بسيطة ضحك السائق وقال لى :

— « هل كنت تسكن هنا » ؟

— « نعم .. عندما كنت طفلا ، فى عامى ٣١ — ١٩٣٢ م ، هناك فى الدور الثالث على اليمين » .

— « اذن ، اصعد الى هناك ، يمكنك أن تعمل استراحة قصيرة ، وتشاهد مسكنك السابق » .

ولكنى تذكرت القائمة التى معى ، وتذكرت المهمة الحزبية ، فرفضت

توقفنا بعد بضعة دقائق أمام « فيلا » جميلة ، لم يصبها الدمار فى شارع « بودبيلسكى » رقم ١ ، فرأيت علمين مجهولين لاحدى الدول الأجنبية معلقين على شباكين . يبدو أن « الفيلا » كانت مقر سفارة أجنبية وكيفما كان الأمر ، فقد تخيلت لقائى الأول — وأنا وحدى — مع ألمانى مناهض للفاشية بصورة أخرى . كنت — ككل الناس الذين عاشوا فى الاتحاد السوفييتى زمنا طويلا — ممتلئا رعبا من الاقتراب من مبنى سفارة أجنبية .

طفت بالمبنى وأنا متردد فاكتشفت يافطة مكتوبا عليها بالألمانية والانجليزية والروسية ، ويفهم من هذه الكتابة . أن هذه سفارة « تايلاند » (سيام) سفارة دولة محايدة .

يجب على البحث عن أول ألمـانى مناهض للفاشية فى سـفارة « سيام » ! هل أدخل أم لا ؟ سرت هنا وهناك وأنا مضطرب ثم فتح شباك •

ـ « هل تريدنا » ؟

ـ « قيل لى ان السيد « فولف جانج هاريش » يسكن هنا » •

ـ « نعم •• هذا صحيح ، ادخل » •

كانت هذه الفيلا التى أدخلها متباينة تباينا كبيرا عن كل ما رأيته قبل وقت قصير فى شارع « فرانكفورت » لقد كانت فى الحقيقة ، بالضبط مثل السفارات الأجنبية ، التى عرضت فى الأفلام السوفييتية •

قادنى رجل بأدب بالغ الى الطابق الثانى ، حيث قدمت نفسى لـ« فولف جانج هاريتس » • كان شابا يرتدى ملابس جيدة •

ـ « ماذا تريد » ؟

شرحت له ـ باختصار ـ الوضع فى برلين ، والصعوبات والضرورات الملحة فى الاستعانة بمجهود المناهضين للفاشية • ومن واجبى أن أقربهم للعمل فى الادارة التى ستكون حديثا •

ولكن كان « فولف جانج هاريش » مرتابا فى بادىء الأمر :

« يسأل عنى الآن فجأة كثير من الناس ، ويحاولون الاتصال بى ولم أرهم قط قبل هذا الانهيار • لابد أن تفهم أنى أعمل فى المقام الأول مع أولئك الذين شاركوا أثـناء حكم النازيين فى اتجـاهنا المناهض للفاشيـة » •

بدأ يحكى لى رغم البداية المريبة • عن المجموعات السرية فى محيط الطلبة فى برلين ، وعن الهاربين من الجيش الذين استخرجت لهم أوراق رسمية أخرى •

أنصت اليه باهتمام • واستطعت بعد لحظات أن أتأكد أن الأمر يدور حول نشاط آخر ليست له صلة بالحزب الشيوعى الألمـانى ، بل قامت به دوائر أخرى مناهضة للفاشية فدفعنى هذا الى الاهتمام أكثر بسماع أخبار نشاط هذه القوى الأخرى •

ولكن ربما كان اهتمامى الواضح بسماع ما يقوله سببا فى أن يأخذ حذره « لا تؤاخذنى اذا سألتك سؤالا مباشرا ، من أنت بالضبط ؟ هل أنت مكلف بشىء ما » ؟

« كنت أثناء الحرب مذيعا فى اذاعة « ألمـانيا الحرة » فى موسكو ،

وأنا الآن فى برلين للاتصال بالدوائر المناهضة للفاشية ، ومحاولة اقناعهم بالعمل فى الادارة الجديدة •

أثار هذا اهتمامه ، فأصبح متشوقا الى سماع الكثير منى ، بالضبط كما كنت أنا قبل لحظات • أتشوق الى سماع الكثير منه ، حاولت بكل جهدى الهروب من أسئلته — وكان ذكيا فى صياغتها — عن الاتحاد السوفييتى ، فليس من واجبى أن أتناقش فى سفارة « سيام » عن المشاكل النظرية فى الاتحاد السوفييتى ، بل العثور بسرعة عن المناهضين للفاشية للادارة • وعندما سألته عما اذا كان مستعدا لهذا قال : « لا •• فنادرا ما أهتم بهذا ، ولكنى مستعد بكل سرور للاسهام فى مجال الثقافة أو فى الصحافة أو فى الأنظمة الطلابية » •

ودعته وانصرفت وفى المساء كتب فى قائمتنا : « فولف جانج هاريش » طالب ، مناهض للفاشية ، مثقف يهتم بالعمل فى المنظمات الثقافية ، أو الصحافة أو الحركات الطلابية • وتحققت غايته بالضبط كما طلب ؛ ففى اجتماع تأسيس الرابطة الثقافية — فى أوائل يوليو ١٩٤٥ م — تحدث « فولف جانج هاريش » بوصفه ممثلا للطلبة وانضم فيما بعد الى هيئة تحرير القسم الثقافى فى جريدة Die Tagliche - Rundschau وحضر فى عام ١٩٤٨ م دورة المحاضرين الدراسية فى المعهد العالى للحزب ، وكان محاضرا فى جامعة « هومبولد » حتى قبض عليه فى نوفمبر ١٩٥٦ م •

تعرفت فى نفس اليوم على كثير من المناهضين للفاشية فى برلين ، وكان الأعضاء الآخرون فى نفس الوقت فى مهمات مماثلة • وبعد بضعة أيام جمعنا فى كل حى فى برلين مجموعة من « العاملين » وكان معظمهم من أعضاء وقياديى الحزب الشيوعى الألمانى السابق وهم قد أحضروا بدورهم مجموعة أخرى من المناهضين للفاشية •

تقدم العمل كل يوم خطوات الى الأمام فازداد باستمرار عدد المناهضين للفاشية الذين عرضوا خدماتهم فاستعنا بهم فى تكوين ادارات الأحياء •

* * *

نحن نعين عمدة الحى وموظفى ادارته

عين الحكمداريون الروسيون فى أول مايو عمد وموظفى الأحياء بأنفسهم ولم يكن من النادر تعيينهم الأشخاص بدافع من محض ارادتهم

الخاصة ، فقد كانوا — مع عدم اجادتهم اللغة الألمانية — فى موقف حرج • على أى كيفية ينبغى أن تسير الأمور ؟ فحلوا المشكلة بطريقتهم الخاصة ، وهذا ليس تجريحا طلاقا : عينوا ببساطة أولئك الذين قالوا لهم انهم ضد الفاشية « كانوا نزلاء معسكرات الاعتقال » أو « شيوعيون قدامى » •

خرج أحد الحكمداريين الى الشارع بعد أن تسلم أمرا بتعيين عمدة للحى فرأى رجلا مارا بالصدفة ، أعجبه منظره فأمسك بذراعه وقال له : « تعال •• أنت الآن عمدة » وأصاب تقديره بطريق الصدفة أيضا اذ كان هذا الرجل كفئا لتولى هذا المنصب •

وللأسف لم يكن الوضع هكذا فى كل مكان ، أحيانا ظهر بعد أيام قليلة أن هذا الرجل الذى ادعى أنه مناهض للفاشية « نزيل معسكرات الاعتقال » أو « شيوعى قديم » ليس الا انسانا ضعيفا يسعى وراء المناصب وشخصا مشكوكا فيه وحتى فى بعض الحالات ظهر أنه نازى سابق •

كان واجبنا فى هذه اللحظة ازالة العجز عن الادارة التى تكونت بطريق الصدفة وتعيين أكفاء من المناهضين للفاشية •

كلفنا « أولبريخت » بمهمات جديدة ، يجب أن يرأس ادارة الحى عمدة واثنان وكلاء « يكون الوكيل الأول مسئولا عن قسم شئون العاملين » ويعين فى هذه الادارة مجموعة من رؤساء الأقسام للتغذية ، الشئون الاقتصادية ، والخدمات الاجتماعية ، الشئون الصحية ، المواصلات ، التعيينات ، التعليم ، المالية ، الشئون الدينية •• الخ •

كان تعيين هذه المجموعة البسيطة — فى عشرين حيا فى برلين مهمة صعبة جدا ، وبدت أكثر صعوبة عندما ألح « أولبريخت » على أن ننتهى من هذا العمل قبل مضى أسبوعين على أكثر تقدير ، ولكن الأمر ليس « تعيين أشخاص » أيا كان نوعهم •

فقد شرح لنا « أولبريخت » :

« يجب أن تكون الادارة مركبة تركيبا صحيحا من الوجهة السياسية فنحن لا نحتاج الى أن يتولى الشيوعيون فى مناصب العمد الا فى حى « فيدنج » أو فى حى « فريدريشهاين » فقط • يجب أن تكون العمد فى الأحياء العمالية من الديمقراطيين الاشتراكيين ، وفى الأحياء الوطنية : « تسيليندورف » و « فيلمرسدروف » و « شارلوتينبرج » يجب أن يعين فى القمة رجل وطنى ، كان سابقا من الشخصيات المهمة فى

الحزب الديمقراطى ، أو فى حزب الشعب الألمانى ، ومن الأحسن أن يكون دكتورا ولكن لابد أن يكون فى نفس الوقت مناهضا للفاشية ويمكننا أن نعمل معه » .

وسأل واحد منا : « والمناصب الأخرى » ؟

ـ « ليست مستعجلة كهذه .. فسيأتى دورها بعد ذلك مباشرة ويجب أن تتناسب أيضا مع تكوين أحياء برلين السياسى . فليس الوضع فى « تسيليندورف » مثله فى « فيدينج » أو فى « فريدريشهاين » ففى الأحياء العمالية يجب علينا فى المقام الأول تعيين كثيرين من الديمقراطيين الاشتراكيين أو المستقلين المناهضين للفاشية ، من الطبقة العمالية الذين يعملون معنا باخلاص . أما فى الأحياء الوطنية ، فيجب علينا البحث بقدر ما يمكننا عن كثير من الوطنيين ، ومن الأفضل أن نعين لديمقراطيين الاشتراكيين وكلاء للعمد ورؤساء أقسام : التغذية ، الشئون الاقتصادية ، والخدمات الاجتماعية ، المواصلات ، فهم يفهمون شيئا فى السياسة المشتركة ونعين للشئون الصحية أطباء مناهضين للنازية ، وللبريد وشئون الاتصالات أخصائيين مستقلين . وعلى كل يجب شغل نصف المناصب على الأقل بالوطنيين والديمقراطيين الاشتراكيين » .

تبادلنا نظرات حائرة ، لأننا لم نتعرف حتى الآن الا بالشيوعيين ، ولا نعلم أين نجد الديمقراطيين الاشتراكيين والوطنيين .

واصل « أولبريخت » حديثه :

« لقد تعرفتم الآن على عدد كاف من الناس ولذا فتستطيعون البدء غدا بتكوين الادارات . ابحثوا أولا عن العمدة ، فاذا وجدتم ديمقراطيا اشتراكيا أو وطنيا ، فستعثرون أيضا على أشخاص مناسبين للمناصب الأخرى .

والآن نأتى الى رفقائنا ، يجب أن يعين منهم الوكيل الأول للعمدة ورئيس قسم شئون العاملين والتعليم . كما يجب أن نبحث فى كل حى عن رفيق يعتمد عليه جدا لأننا سنحتاج اليه فى اعادة تكوين جهاز الشرطة .

هذا فى كل الأحياء ، لأننا سوف نقتصر فى بعض الأحياء على أن يكون الشيوعى الوحيد هو رئيس جهاز الشرطة ، وربما يمكننا أن نزيد واحدا أو اثنين من رجالنا فى الأحياء العمالية مثل « فيدينج » و « فريدريشهاين » و « نيونويكولن » و « ليشتينبرج » .

ـ « وماذا فى منصب المسئول عن الشئون الدينية » ؟

ـ « هذا يجب أن تبحثوا له عن رجال دين مناهضين للفاشية ، بمكن أن نتفاهم معهم وهذا مهم جدا الآن » .

فهمت الآن أن دراستى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لم تكن عبثا ، لأن ما تدربت عليه فى « بشكرين » قبل عامين ونصف يطبق الان حرفيا ـ تكوين اللجان الشعبية تكوينا صحيحا ، غير أن هنا فرقا ، ألا وهو أن الأمر هنا لا يتعلق بلجان شعبية بل بادارات الأحياء .

ناقشنا توجيهات « أولبريخت » . وخاصة مسألة البحث عن هذا العـدد الكبير من الوطنيين ، وأيضـا البحث عن رجال دين ، ولكن « أولبريخت » أنهى المناقشة بعد نصف ساعة تقريبا ، ثم أعطانا آخر التعليمات بلهجة « زكيسينية كلاسيكية » :

« هذا واضح جدا ، لابد أن يبدو أنه ديمقراطى ، ولكن لابد أن نملك نحن كل شىء فى أيدينا » .

أصبح كل شىء الآن حقيقة واضحة .

ثم تبع ذلك مرة أخرى توزيع أحياء برلين علينا ، فتمنيت ـ فى نفسى ـ أن أحصل على حى ، أستطيع العثور فيه على ديمقراطى اشتراكى ليكون عمدة ، لأنه لم يزل العثور تلك الأيام من شهر مايو على ديمقراطى اشتراكى أسهل من العثور على وطنى ولكن لم تتحقق أمنيتى فقد جاء نصيبى فى حى « فيلمرسدورف » بالذات ، وهو الحى الذى يجب أن يكون عمدته وطنيا .

وقفت فى صباح اليوم التالى حائرا أمام باب الحكمدارية فى شارع « برلين » .. تعرفنا فى « فيلمرسدورف » على عدد من الرفقاء ففكرت فى الذهاب اليهم ليساعدونى فى البحث عن وطنى ليكون عمدة .. جاءتنى هذه الفكرة لانقاذى .

وقف أمام الحكمدارية حشد كبير من الناس أمام شباك مفتوح من شبابيك الدور الأرضى ، وكان أحد الضباط فى الحجرة خلف الشباك ووقفت فتاة سوفييتية ترتدى الملابس العسكرية فى الشارع أمـام الشباك مباشرة .

أراد الناس أن يستفهموا من الضابط عن بعض المشاكل ، ولكنه كان يجيبهم اجابة غامضة ، وكانت ترجمة الفتاة أكثر غموضا فلم يفهم الناس شيئا .

وقفت بجانب الفتاة لأساعدها فى الترجمة ولم تمض لحظات الا وأحاطنى سكان الحى يمطرونني بوابل من الأسئلة .

وفى هذه اللحظة قال لى رجل يبلغ الخامسة والأربعين من عمره تقريبا : « هل يمكن أن أتحدث معك لحظة على انفراد » ؟

فانتحينا جانبا .

« لا تؤاخذنى فى هذا الرجاء . لقد لاحظت أنك على علم بهذه المسائل ، وعلاوة على ذلك فأنت تجيد الروسية . المسألة تتلخص فيما يلى : اعتقلت بتهمة الاشتراك فى مؤامرة ٢٠ يوليو ، وظللت فى معسكرات الاعتقال حتى قبل أيام قليلة ... » أطلعنى على أوراقه وبعد سؤاله بعض الأسئلة عرفت أنه كان عضوا فى الحزب الديمقراطى وانضم فى عهد « هتلر » الى مجموعة معارضة يبدو أنها كانت مجموعة « وطنية » معارضة ، فهو بالضبط ما أبحث عنه . سألنى بعض أسئلة أخرى تتعلق بالخدمات ، فأجبته عليها بسرعة ثم أراد أن يودعنى شاكرا — فقلت له بعجلة :

« انتظر .. لا تؤاخذنى اذا وجهت لك هذا السؤال المباشر ، هل أنت مستعد أن تتولى منصبا رئيسيا فى ادارة الحى الجديدة ؟ نحن نبحث عن أكفاء مناهضين للفاشية ولاحظت من حديثنا القصير أنك مناسب لهذا المنصب » .

ضحك بأدب ، ولكنه رفع كلتا يديه رافضا :

« لا .. أعتقد أنى غير مناسب لهذا المنصب ، فأنا لا أفيد الادارة كثيرا ، ولكن اذا كنت حقيقة فى حاجة الى من يتولى هذا المنصب فان لى صديقا مستشار أول فى الحكومة سابقا ، وكان عضوا فى حزب الشعب الألمانى ، وله خبرة واسعة فى مشاكل الادارة ، كان معارضا للحرب وقبض عليه بعد ٢٠ يوليو . سوف يعجبك حقا »

— « أين يسكن » ؟

— « ليس بعيدا من هنا ، ربما على بعد خمس عشرة دقيقة » .

أشرت له الى العربة المنتظرة وقلت :

« هل أضايقك اذا رجوتك أن تأتى معى الآن لنذهب اليه » ؟

وهكذا انطلقنا بالسيارة لنصطاد عمدة لحى « فيلمرسدورف » فى برلين .

وقفت العربة أمام « فيلا » صغيرة يبدو عليها الاهمال .

فتح لنا الباب رجل متقدم فى السن تعلو وجهه الابتسامة ويبدو أنه عاش أياما رخية لينة وقدم نفسه باسم الدكتور « فيللين بوشر » بدأنا الحديث بسرعة وبعد عشر دقائق توصلت بينى وبين نفسى الى قرار : يعين دكتور « فيللين بوشر » عمدة لحى « فيلمرسدورف » بدا لى من أول نظرة أنه طبيب وعلاوة على هذا فتعليمات « أولبريخت » تنطبق عليه بالضبط : فهو ينحدر من محيط وطنى وكان عضوا فى حزب وطنى ، مناهض للفاشية ، يحمل لقب دكتور وعلاوة على ذلك — وان لم يؤكد عليه فى بعض التعليمات ولكنه مهم جدا — فهو كمستشار أول للحكومة سابقا ، له خبرة طويلة فى المسائل الادارية .

— « هل أنت مستعد لقبول منصب عمدة حى « فيلمرسدورف » لو وافقت سلطات الاحتلال على ذلك » ؟

تمدد فبدا أكبر بضعة سنتيمترات من ذى قبل :

« انه شرف لى أن يسمح لى بوضع خبرتى الادارية المتواضعة فى خدمة الجهاز الحكومى » . لاح بخاطرى أعجوبة هذا الوضع : شاب شيوعى يبلغ من العمر ٢٣ عاما نشأ فى الاتحاد السوفييتى ، ولم يأت الى ألمانيا الا قبل ثلاثة أيام ، يعين مستشارا حكوميا سابقا فى منصب عمدة .

والآن يجب انهاء الاجراءات فى الناحية الأخرى — مع الحكمدار السوفييتى — ولكن الأمور سارت دون عقبات فقد سر الحكمدار جدا ، لأن واحدا حرره من الواجب الثقيل ، واجب تعيين عمدة وسط هذا الوضع المرتبك وقال :

« هات هذا العمدة الى بسرعة ، سوف نشرب كأسا معه ونصدر أمر تعيينه حالا » وبعد بضع دقائق كنت عند الدكتور « فيللين » مرة أخرى .

فبدا فى هذه المرة فى وضع آخر ، ارتدى أحسن حلله السوداء ولم يعد يمشى منحنيا ، بل انتصبت قامته ثم بدا على عينيه السرور المباغت عندما رجوته أن يركب العربة .

أما الحكمدار — الذى أخبرته من قبل أن المرشح لمنصب العمدة رجلا وطنيا يهتم بالرسميات — فقد حاول أن يعمل ما فى وسعه :

« يسرنى جدا أن أحييك هنا يا دكتور « فيللين بوشر » .

فأجابه الدكتور : « أنا مسرور أكثر » .

جلسنا فى حجرة مقبولة نسبيا فى هذه الأيام من مايو سنة ١٩٤٥ م

وسأل الحكمدار بعض الأسئلة الروتينية ، ثم أعلن بعد دقائق قليلة بنعمة رسمية أنه عين الدكتور « فيللين بوشر » عمدة لحى « فيلمرسدورف » فى برلين • وفى هذه اللحظة أحضر أحد المساعدين الكؤوس و « الفودكا » وفى جو ودى جدا رفع القائد الكأس قائلا :

« فى صحة العمل الموفق لادارة الحى الألمانية الجديدة فى « فيلمرسدورف » •

كنا راضين جميعا : الحكمدار ، لأنه حل المشكلة العويصة بطريقة سهلة ، والدكتور « فيللين بوشر » لأنه أصبح عمدة ، وأنا لأنى لم أنفذ تعليمات « أولبريخت » حرفيا فقط ، بل لأنى اعتقدت أيضا أنى وفقت فى اختيار أول عمدة •

وعينت فى نفس اليوم كل الأشخاص المطلوب تعيينهم فى الادارة ، طبقا للقائمة التى معى ، فقد عين نائب العمدة ورئيس الشئون التعليمية من الشيوعيين كما تولى شيوعى كفء كان عضوا فى الحزب الشيوعى الألمانى — رئاسة الشرطة ، وكان رؤساء الأقسام الأخرى من المستقلين أو من الديمقراطيين الاشتراكيين أو من الوطنيين •

قال الحكمدار : « كله تمام •• وشكرا جزيلا على هذا المجهود » •

وبدأت ادارة حى « فيلمرسدورف » فى مباشرة أعمالها • وهكذا عين عمد وموظفو ادارات أحياء برلين فى العشرة أيام الأولى بواسطتنا مع مساعدة الرفقاء الذين استدعوا للاستعانة بهم • ولم تحدث أى صعوبات مع الحكمداريين ، بل على العكس كانوا مستعدين للتوقيع على القائمة التى قدمناها لهم ، ثم وجهوا الينا الدعوة للطعام والشراب ، وكانت كمية المشروبات كبيرة جدا لدرجة أنه ظهرت بيننا مداعبة : تعيين عمدة سهل ، ولكن كيف يستطيع المرء شرب هذه الكميات التى قدمها الحكمدرايون •

* * *

حكمدار « كرويتسبرج » واللاجئون الروسيون

حلت مشكلة ١٩ حيا من ٢٠ حيا فى برلين بعد أيام قليلة ولم يبق سوى حى واحد لم ننجح فى حل مشكلته وهو حى « كرويتسبرج » •

عدنا الى الاجتماع ذات يوم مساء ، فوزعت علينا الأحياء مرة أخرى ، فرجوت أن يسمح لى بالذهاب ثانية الى « فيلمرسدورف »

لكى أنهى تكوين الادارة ولأساعد فى حل بعض المشاكل التى تظهر بعد مباشرة العمل ، ولكن لم يحقق رجائى •

« فيلمرسدورف » سيسير لعمل فيه ، ولكن أهم ما عندنا الآن هو حى « كرويتسبرج » فالمسألة هناك معقدة ، ومن الأحسن أن تسافر معنا الى هناك • واشار « أولبريخت » الى والى « فريتس اربن بيك » :

— « أين ادارة هذا الحى » ؟

فقال « أولبريخت » : « نعم هذا حق ، ولكن ليس لدينا حتى العنوان » •

اتجهنا فى اليوم التالى الى « كرويتسبرج » ونحن لا نعلم ما « هى العقبة » هناك • وعلى كل فيظهر أن أمامنا مسائل كثيرة معقدة ومتشابكة •

وأول ما واجهنا من المشكلات أن لا أحد استطاع أن يقول لنا أين هى ادارة الحى ! فكلما سألنا واحدا عنها يشير لنا الى الطريق المؤدى الى الحكمدارية • فنرد عليه :

« ولكن لا نريد الحكمدارية اطلاقا نحن نريد الوصول الى ادارة الحى الألمانية » •

فكانوا يجيبوننا : « أليست هى نفسها » ؟

بدا أن هناك شيئا خطأ !

لم نجد بدا من الذهاب الى الحكمدارية ، وكان مقرها فى الطابق الثانى فى منزل كبير ، وعندما صعدنا السلم قرأنا على الطابق الأول يافطة مكتوبا عليها : ادارة حى « كرويتسبرج » فهززنا رؤوسنا تأسفا • ما هذا الغباء : ادارة الحى الألمانية والحكمدارية فى منزل واحد •

دخلنا الادارة للتعرف عليها ، فرأينا اثنى عشر رجلا يجلسون حول منضدة وبدوا وكأنهم فى اجتماع • ولما كان من المعتاد فى ذلك الوقت أن زوار الادارة كثيرون • لم يهتم أحد منهم بنا • جلسنا فى أحد الأركان نستمع • فدهشنا بعد سماع الكلمة الأولى ، فهم يتحدثون باللغة الروسية •

كنا حيارى ، ربما نكون الآن فى الحكمدارية ؟ ولكن لماذا يرتدى هؤلاء ملابس مدنية ؟ من هم هؤلاء الرجال ؟

قررنا مبدئيا الاستمرار فى الانصات لما يقولون ، ولم يكن متابعة حديثهم صعبا ، لأننا نعرف اللغة الروسية معرفة جيدة : مستشفيات •• اخلاء الشوارع من الأنقاض •• توفير المواد الغذائية •• ليس

هناك مجال للشك ! فالمناقشة تدور حول المهمات التى يجب أن تقوم بها ادارة الحى الألمـانية •

وبعد ذلك بوقت قصير رفعت الجلسة لاستراحة قصيرة ، وبعد أن قدمنا أنفسنا لهم ، حاولنا حل لغز « كرويتسبرج » فسألناهم باللغة الروسية :

« لا تؤاخذوننا على هذا السؤال ! هل أنتم موظفون فى الحكمدارية ؟ أو أنتم هيئة استشارية » ؟

فأجاب رجل كان يجلس على رأس المنضدة ، ربما كان رئيس الجلسة — باللغة الروسية — :

« لا •• نحن الادارة الألمـانية نفسها ، هل تسمحوا لى الآن أن أقدم لكم زملائى » ؟

كانوا كلهم روسيين ، وليس بينهم ألمـانى واحد ! وظهـر من الحديث أنهم لاجئون من روسيا •

بدا أنهم واثقون من أنفسهم ، ربما يتلقون التأييد من الحكمدار الروسى • عندما عبرنا لهم بأسلوب حذر أنه ينبغى أن تكون هنا ادارة ألمـانية وليس من الممكن أن تكون ادارة حى ألمـانى وموظفوها روسيون ، أجابوا بأدب وبطريقة حاسمة :

« لقد عيننا هنا الحكمدار الروسى ، فللحكمدارية الروسية الحق فى التعيين ، أليس كذلك » ؟

وكان محتما علينا أن نرد بالايجاب ، فليس « لمجموعة أولبريخت » من الناحية الرسمية سوى تقديم الاقتراحات لشغل مناصب الادارة الألمـانية • غير أنه من الناحية العمليـة أن الحكمداريين الروسيين وافقوا بسرعة على اقتراحاتنا • وهكذا واتتنا الشجاعة لاتخاذ القرار ، سوف نشرح الموقف ببساطة للحكمدار الروسى ونقترح عليه تكوين ادارة ألمـانية وعزل الروسيين •

قدمنا أنفسنا الى الحكمدار كـ« ممثلين لمجموعة أولبربخت » ولكنه على خلاف العادة مع الحكمداريين حتى ذلك الحين — لم يدعنا للجلوس بل باغتنا بسؤال بطريقة باردة : « ماذا تريدون هنا » ؟

« لا تؤاخذنا •• لقد شرحنا لك أننا أعضاء فى « مجموعة أولبريخت » التى هى مكلفة بأمر من الجنرال « جلادشييف » بمعاونة الحكمداريين الروسيين فى تكوين الجهاز الادارة الألمـانى • هل عندك علم بوجود « مجموعة أولبريخت » ؟

ـ « نعم .. علمت بذلك ؛ ولكن عندنا الآن ادارة ولا نحتاج الى مساعدتكم » لا زلنا واقفين ، بدا أنه حكمدار صعب جدا .

فعلنا كما يفعل المرء غالبا فى مثل هذه الأحوال ـ أشعلنا السجائر .

ـ « لم أسمح لكم بالتدخين ، فمن المعتاد فى الجيش طلب الاذن لتدخين من الضابط ذى الرتبة الأعلى . قبل أن تشعل السيجارة » .

لم أسمع مثل هذه النغمة منذ سنوات عديدة ـ منذ أيام « كاراجندا » لا نستطيع أن نفعل شيئا فى هذه اللحظة . فالحق فى جانبه من الناحية النظرية .

أطفأنا سجائرنا بعصبية ، وركزنا جهودنا فى مشكلتنا .

ـ « نرجو أن تفهمنا أيها الرفيق الحكمدار ، لقد تأكدنا أن ادارة حى « كرويتسبرج » من الروسيين فقط ، بينما المفروض أن تكون الادارة فى برلين من الألمـانيين المناهضين للفاشية والديمقراطيين » .

لم يتأثر أدنى تأثر بشرحنا هذا .

ـ « أنا أعمل مع هذه الادارة بطريقة ممتازة جدا ، فهم يفهموننى وأنا أفهمهم ، فهم ـ على الأقل ـ لا يتكلمون هذه اللغة الألمـانية ، لغة الكلاب التى لا يفهمها أى انسان . أما ما يتعلق بماضيهم فلا شأن لى به ، فأنا أتصرف كما يجب بالضبط وبحذر » .

لم نستسلم وكررنا معارضتنا ، ولكن لم نصل الى نتيجة ؛ فقال بفظاظة : « ان من واجبكم المساعدة فى تكوين الادارة ، وعندنا الآن فى « كرويتسبرج » ادارة ، حلت التزاماتكم على أحسن وجه . عينتها بنفسى وأعمل معها على أكمل وجه وأعتقد أن المسألة قد حلت بهذا حلا ممتازا ، فلم يعد هناك ضرورة لمساعدتكم » .

لم نرتبك أيضا بل أخرجنا البطاقات الشخصية الموقع عليها من الجنرال « جلادشييف » ووضعناها على المنضدة على نحو مكنه من قراءة ما كتب فيها فقال بنغمة ودية :

« حسنا .. أنا مستعد أن أجعلكم تسلمون بهذا ، فستعقد الادارة اجتماعـا معى بعد بضعة دقائق ، يمكنكم أن تحضروا هذا الاجتماع لتقتنعوا بأنفسكم بما تقوم به ادارة الحى » .

قبلنا الدعوة ، فأصبحت عندئذ فرصة نادرة ، حضور اجتماع ادارة ألمـانية ذاتية والتفاهم فيه باللغة الروسية .

تأكدنا بعد نصف ساعة أن ادارة الحى تبذل فعلا مجهودا كبيرا ،

فقد قدم رؤساء الأقسام تقريرات مختصرة وموجزة جدا عن ازالة الأنقاض وتوزيع المواد الغذائية ، حالة المدارس ، تعزيز المستشفيات — كانت المسالة الاخيرة مهمة جدا بالنسبة لنا .

فبعد أن انتهى رئيس قسم الشئون الصحية من تقريره ، اتجه الى الحكمدار مترددا قائلا :

« أحب أن أقترح اقتراحا خاصا ، ولكنه يتعلق بمسألة غريبة » .

— « لا توجد مسائل غريبة ، فنستطيع أن نتحدث عن كل شيء بحرية ووضوح ، فقل ما عندك ، فنحن نجتمع هنا لنتخذ الاجراءات اللازمة فى هذه الحالة ، كى نعيد الحياة العادية ، فتحدث من فضلك » .

— « تدور المسألة حول العلاقة التى تنشأ بين الجنود الروسيين وبين النساء فى برلين ، فهذه الظاهرة تتسع بسرعة فظيعة ، لقد تحدثنا عنها فى الاجتماع السابق » .

— « ولماذا تعاود الحديث عنها ؟ لقد قلت لك أننى سأتخذ كل ما يلزم للتصدى لهذه الظاهرة ، وأنت تعلم أننى اذا جاءتنى شكوى ، سأسرع بارسال أحد معاونينا ، فاذا ثبتت جريمة فسوف يعاقب مرتكبها . ولكنك ترى أننى بهذه القوة الصغيرة من المساعدين — فى وضع لا يمكننى من ايقاف هذه الظاهرة فى أيام قليلة » .

— « سيدى الحكمدار .. لا أحب أن تفهم من اعادتى للكلام فى هذا الموضوع فهما سيئا عنى ، فأنا بوصفى طبيبا ورئيس قسم الشئون الصحية فى الحى يجب على أن أتوقع انتشار الأمراض ، وذا أقترح أن تنظم هذه العملية تحت اشراف صحى » .

نظر اليه الحكمدار بدهشة : « كيف ترى هذا » ؟

— « يمكننا أن نقيم أماكن لهذا الاتصال تحت اشراف قسم الشئون الصحية فى الحى — وعندنا قوة كافية لتجنيدها فى هذا العمل — وبهذا نتقى الخطر فى الناحية الصحية فى حينها » .

فقال الحكمدار غاضبا :

« اذن فهو نوع من بيوت الدعارة تحت رئاسة قسم الشئون الصحية » ؟

حاول الطبيب شرح وجهة نظره ولكن بدون فائدة .

— « لا يعرف الجيش السوفييتى بيوت الدعارة ، ولن نقيم مثل هذا مطلقا ، فلو لم أعرف أنك موظف كفء ومجتهد فى عملك ، لاعتبرت

اقتراحك استفزازا ، بل اهانة لشرف الجيش السوفييتى • أنا أعتبر هذه المسألة منتهية ، ولا أريد ذكرها مرة أخرى • ننتقل الى النقطة التالية » •

امتدت الجلسة ساعتين أخريين تقريبا ، وفى أثناء ذلك فكرنا — « فريتس أربن بيك » وأنا — فيما يمكن عمله لنمهد لالغاء الادارة المدنية الروسية فى « كرويتسبرج » •

قدمنا تقريرا عن الوضع فى مساء ذلك اليوم فى « بروخميلى » ، فدون ضابط الاتصال الروسى الذى يشترك دائما فى جلساتنا كل الملاحظات عن هذا الموضوع ، ثم وعدنا قائلا : « سوف نحاول التأثير على الحكمدار » ولكن الحكمدار العسكرى فى « كرويتسبرج » ظل متمسكا برأيه ولم يصغ لأى كلام وجه اليه — حتى من الادارة السياسية الرئيسية التى كان لها سطوة فى تلك الأيام من شهر مايو سنة ١٩٤٥ م •

ومرت أسابيع أخرى حتى حصل حى « كرويتسبرج » على ادارة ألمانية ، ولم أعلم من حل هذه المشكلة ، من استطاع أن يضع البندقة فى الكسارة • ولم أتبين فى مثال « كرويتسبرج » فقط عجز الحكمداريين عن مواجهة الحشود من سكارى الجنود السوفييت المزعجين ، المتحررين من كل رقابة ، بل أيضا عجز الادارة السياسية الرئيسية أمام جنود الجيش الأحمر الخارجة عن النظام ، وكذلك أمام تصرف الحكمداريين الدكتاتوريين •

* * *

« شبالينجر » الحكمدار المريض

لم تكن « كرويتسبرج » البندقة الوحيدة المستعصية ، التى وجب علينا وضعها فى الكسارة • كانت الحالة الثانية أكثر اثارة وتسببت فى مفاجآت متتالية ، وفى اثارة محوجة من الشك والارتياب • كانت هذه هى حالة « شبالينجر » •

بدأت حالة « شبالينجر » بحادثة طريفة — لم يلتفت الى ما تحدثه من آثار — فى اليوم التالى من عملنا فى برلين فقد خفف « هانز مالى » من صلابة الجو فى الجلسة الأولى بحكاية حدثت فى حى « راينيكيندورف »

« تصوروا ! •• فتح الروسيون مستشفى الأمراض العقلية فى « فيتيناو » وأطلقوا سراح كل من فيه ، وفى أثناء تجولى بالسيارة فى

انحى مررت على مستشفى الأمراض العقلية مصادفة فوجدت بعض جنود الجيش الأحمر يقتحمون الباب ويصيحون فى المرضى : « تحطم هتلر » وانتهت الحرب ، فأنتم أحرار ! لم يتحرك المرضى بل نظروا اليهم مكتئبين ، ثم انضمت مجموعة أخرى من الجنود الى المجموعة الأولى ، وصاحوا فيهم من جديد « الحرب انتهت .. حرية ! » فاستمر المرضى فى سكونهم فغضب الجنود وأخرجوهم من المستشفى ، وأغلقوا الباب وراءهم وعينوا أمامه حارسا • ثم مررت هناك بعد الظهر فوجدت جنديا سوفييتيا مدججا بالسلاح ، واقفا أمام باب المستشفى ووقف حوله المرضى وهم يصيحون : « نريد الدخول » فيجيبهم الجندى وهو يطردهم بعيدا عن الباب :

« الآن حرية ! لقد تحطم « هتلر » •

وبعد بضعة أيام وقعت حوادث غامضة فى أحياء مختلفة ، فقد وجه الينا مرارا وتكرارا هذا السؤال :

« هل معكم أمر تكليف من « شبالينجر » ؟

تساءل « أولبريخت » عندما علم بهذا الخبر : « شبالينجر » ! من هو « شبالينجر » ؟

ظهر اسم « شبالينجر » فى بادىء الأمر فى الأحياء الشمالية فقط ثم انتشر بعد أيام قليلة فى مختلف أحياء برلين ، تحدث الناس فى « تربيتوف » وفى « راينيكيندورف » وفى « ليشتينبرج » • وكان اسم « شبالينجر » معروفا حتى فى حى « تسيليندورف » •

وقفنا أمام لغز ..

راجعنا كل قوائم أسماء المناهضين للفاشية ، فلم نجد فيها اسم « شبالينجر » •

فطلبنا من الرفقاء المتقدمين فى السن أن يعصروا ذهنهم ، ويحاولوا أن يتذكروا ، عما اذا كانوا قد سمعوا مرة باسم « شبالينجر » ، فلم يتذكر أحد هذا الاسم •

قال « أولبريخت » :

« اذا ذهبتم غدا الى الأحياء ، فاهتموا بالبحث عن « شبالينجر » فاذا سمعتم أحدا يتحدث عنه ، فتتبعوا الخيط حتى تصلوا الى نهايته » •

كنت سيء الحظ فى هذا المجال ، فلم يصل اسم « شبالينجر » الى حيى ، وكنت دائما متشوقا الى سماع التقارير فى المساء عن هذا الحادث •

عندما اجتمعنا فى المساء سأل « أولبريخت » :

« والآن .. ماذا سمعتم عن « شبالينجر » ؟

فقال « جيبتنر » بصوت متهدج :

« لغز غامض جدا ، فعندما سألت عنه قيل : ان « شبالينجر » هو حكمدار برلين » .

وعقب انتهائه من التلفظ بهذه الجملة مباشرة ، انطلقت الأصوات من كل جانب :

— « هذا ما سمعته بالضبط » .

— « لقد صادفت هذا أيضا » .

دون السكرتير وكذلك ضابط الاتصال الروسى كل هذه الملاحظات .

تملكتنا الحيرة ، ماذا حدث ؟ « شبالينجر » حكمدار برلين ؟

فقد كنا نعلم جميعا أن حكمدار برلين هو الجنرال « بيرزارين » .

لم يبق أمامنا سوى الاستمرار فى البحث ، فمهمتنا الآن مضاعفة بناء الجهاز الادارى الديمقراطى فى الحى ، وبجانب ذلك البحث عن الحكمدار الثانى الذى يدعى « شبالينجر » .

تحولت قضية « شبالينجر » فى اليوم التالى تحولا لم يتوقعه أحد قبل ذلك ، فقد ظهرت أوامر مطبوعة فى ادارة بعض الأحياء ، جاء فيها — وأكتب ذلك من الذاكرة — :

الى سكان برلين ..

باسم العمـــال ، وباسم المجلس العسكرى أتولى السلطة فى برلين ! أصدر الأوامر التالية :

١ — القبض فورا على كل أعضاء الحزب النازى ومؤسساته .

٢ — ترفع الى شخصيا تقارير عن عملية القبض باستمرار .

٣ — تنظيف الشوارع ، تشغيل شبكة الكهرباء والغاز والمـــاء فورا ، ينفذ توزيع المواد الغذائية طبقا لتعليماتى .

ومن لم ينفذ أوامرى ستوقع عليه عقوبة صارمة ..

حكمدار برلين

توقيع « شبالينجر »

اشتدت حمى البحث عن الحكمدار المعارض ، ذى اللغز المحير . تسببت أوامره فى آثار مدمرة ، اذ أصبحت الادارة الجديدة فى حيرة من أمرها ، هل تنفذ أوامرنا أم أوامر « شبالينجر » فقلنا لهم يجب أن يهتموا بالضروريات الملحة للشعب : تنظيف الشوارع ، تشغيل شركة الكهرباء ، وتصليح مواسير المياه . ولكن قبل كل هذا تنظيم توزيع المواد الغذائية ، أما « شبالينجر » فقد كانت أوامره على الضد من ذلك اذ جعل فى المقام الأول « القبض على النازيين » .

بدا على بعض الادارات الجديدة أنها ترى أن أوامر « شبالينجر » أحسن من تعليماتنا ، فأنشأوا قسما خاصا ، وسجلوا فيه بحماس شديد أسماء النازيين . وبدا للمرء أن انهماكهم فى هذا العمل لم يدع لهم وقتا آخر للقيام بالأعمال الأخرى ، وانطلقت أصوات الآلات الكاتبة دون انقطاع ، واستمرت قائمة الأسماء فى ازدياد مطرد .

لم يستمر أثر « شبالينجر » وقتا طويلا . فبعد أيام قليلة عاد الينا أحد الرفقاء متوترة أعصابه : « عثر على « شبالينجر » .

فصدرت صيحات من كل جانب : « أين ؟ ومن هو » ؟

استطاع مكتشف « شبالينجر » حكاية القصة بصعوبة من كثرة الضحك : « هو من فيتيناو »(١) .

— « من فيتيناو ؟ وما هى وظيفته » ؟

« ليس له وظيفة ! « شبالينجر » كان نزيل مستشفى الأمراض العقلية فى « فيتيناو » وكان ضمن المجموعة التى أخرجتها جنود الجيش الأحمر من المستشفى » .

— « وما هى حكاية الأوامر المطبوعة » ؟

— « بسيطة جدا ، عندما طرد « شبالينجر » مع المجانين من مستشفى الأمراض العقلية ، تسكعوا فى المنطقة فاكتشفوا غير بعيد من المستشفى مطبعة سليمة لم تصبها قنابل الحرب فدخل « شبالينجر » الى المطبعة وأملى هناك — ويبدو أن ذلك كان فى ذاكرته من الوضع فى عام ١٩١٨ م — أوامره ، فطبعت فى الحال ووزعت » .

ضحكنا كثيرا على حل اللغز المحير ولكننا كنا مشغولين بالعمل.

---

(١) حى فى برلين له معنى ومغزى حى العباسية فى القاهرة ، فيمكن أن يفهم السامع أنه من سكان الحى ، كما يمكن أن يفهم أنه من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية الموجودة فى الحى . م . شامة .

لدرجة أننا لم نعد نهتم بمسألة « شبالينجر » ، ولم نسمع الا فيما بعد عن طريق الأشاعات — ولا يستطيع المرء سوى أن يأمل ألا تكون صحيحة — أن الروسيين ألقوا القبض على « شبالينجر » ، ثم سلموه للانجليز الذين احتلوا « رينيكيندورف » بعد ذلك بوقت قصير ، ثم بعد أن انتقل الحى الى يد الفرنسيين ، أودع « شبالينجر » فى السجن •

* * *

القيادة العامة فى شارع برينسين رقم ٨٠

تلقينا فى صباح أحد أيام الأسبوع الثانى من مايو هذا الأمر : لا ترجعوا بسياراتكم اليوم الى « بروخميلى » بل الى برلين حى « ليشتينبرج » شارع « برينسين » رقم ٨٠ ، فقد أخلى منزلا لكم هناك •

كانت قيادتنا العامة فى منتصف الطريق بين محطتى مترو الأنفاق « ليشتينبرج » و « فريدريتسفيلد » • كان مبنى ضخما جديدا أوسع من منزلنا فى « بروخميلى » حصل كل واحد منا على حجرة فيه واستعمل الدور الأرضى للمكاتب فأخذ العمل صيغة منظمة •

وانضم الينا سكرتيرات ومختزلات ، لأن العمل يتسع كل يوم ويكبر •

كلفت بالسفر مرارا مع « أولبريخت » الى « كارلهورست » حيث كان يناقش معنا ممثلون من أركان حرب المارشال « شوكوف » ما قمنا به من منجزات بالتفصيل • وعلى الرغم من أن « أولبريخت » — بالنسبة لـ« فيلهيلم بيك » يعرف الروسية جيدا فقد كان لزاما على أن أترجم له ، ومن المحتمل أيضا أن الضباط الروسيين كانوا يجيدون اللغة الألمانية ، ولكنهم أخذوا عملية الترجمة لتتيح لهم وقتا للتفكير فى الاجابة أثناء قيام المترجم بترجمة السؤال •

وذات يوم دعينا للدخول الى صالة كبيرة بعد حديث طويل وقيل لنا : « مارشال شوكوف ، يريد أن يتحدث معكم » •

تبادل مارشال « شوكوف » التحية مع « أولبريخت » بطريقة

عرفت منها أن هذه المقابلة ليست الأولى بينهما • وقدمنى « أولبريخت » بوصفى من العاملين معه ، ثم دعينا للجلوس • توقعت محادثة سياسية ولكن لم نتحدث فى هذه المقابلة فى السياسة الا قليلا •

سأل المارشال « شوكوف » « أولبريخت » عما اذا كانت زوجته لا زالت فى موسكو ، ومتى ستصل الى برلين ، واستمر الحديث أيضا حول مسائل خاصة ، وبعد ربع ساعة بدأ « شوكوف » حديثه فى موضوع آخـــر :

« حدثت بعض الحوادث فى برلين فى الأيام الأخيرة توحى بأن هناك ــ وان كان ذلك ليس قويا ــ نشاطا للنازيين • وأعتقد أنه يجب على الرفقاء الألمـــانيين أن يكونوا أكثر يقظة لهذا الجانب » •

دافع عنهم « أولبريخت » :

« أيها الرفيق « شوكوف » •• وجدت حالات كثيرة ، أبلغ الرفقاء فيها الحكمداريين عن نشاط للنازيين • ولكن الحكمداريين كانوا يفرجون عن المبلغ عنهم بسرعة » •

فقال « شوكوف » : « هذا أمر مهم ، سوف أستعلم عن ذلك حالا » •

رفع السماعة وطلب الجنرال « سيروف » الذى كان مسئولا آنذاك عن شئون الأمن فى برلين ، وتولى فيما بعد رئاسة مجلس أمن الدولة فى الاتحاد السوفييتى •

بدأ حديثه فى التليفون بقوله :

« عندى الآن الرفيق « أولبريخت » ، ثم شرح له ما أخبره به « أولبريخت » •

ثم بعد برهة صمت والسماعة على أذنه قال :

« نعم •• نعم •• فهمت ، حسنا ! » ثم انتهت المكالمة ، ولكن « شوكوف » لم يقل لـ« أولبريخت » ما رد به « سيروف » ، غير أنه ألقى سؤالا لم أكن أتوقعه فى هذه اللحظة :

« ماذا حدث فى اصلاح التعليم ؟ هل انتهيتم من المشروعات ؟ هل بدأتم بأى استعدادات فى هذا الاتجاه » ؟

ظهر الارتباك على وجه « أولبريخت » وظهر لى من اجابته أنه لم يحدث شىء فى هذا المجال أكثر مما وضع فى موسكو من خطط وبرامج قبل حضورنا الى ألمـــانيا •

فقال « شوكوف » :

« أعتقد أن هذه المسألة مهمة جدا ، ومن الأفضل أن يبدأ الرفقاء الألمانيون فى هذا المجال بسرعة » .

لم تهمل اشارة « شوكوف » ، فتعيين « أوتوفينسر » — ومما لا شك فيه أن « أولبريخت » يعتبره أقوى شخص فى مجموعتنا — رئيس شئون التعليم فى مجلس بلدية برلين — بالاضافة الى أشياء أخرى — راجع الى هذه الاشارة .

كبرت مجموعة « أولبريخت » عن طريق انضمام قياديين من الحزب الشيوعى الألمانى اليها ، وهم من الذين كان « أولبريخت » يعرفهم من عهد نشاطه السابق :

١ — قابلنا فى بريتس « رومان شفاليك » وكان يبلغ من العمر آنذاك ٤٧ عاما . كان من زعماء نقابة العمال فى « أوبيلن » سنوات عديدة ، ثم عضو فى البرلمان الألمانى من عام ١٩٣٠ الى عام ١٩٣٣ م .

٢ — ووصلت فى نفس الوقت سيارة نقل تحمل بعض القياديين الذين لا زالوا على قيد الحياة من ليمان « براندينبرج » وكان من بينهم واحد يدعى « فالديمار شميت » انضم الى مجموعتنا فورا ، وأصبح فيما بعد رئيس شرطة برلين الشرقية ، ويتولى الآن منصب نائب العمدة .

٣ — « هانزيندرتسكى » ، جاء الى برلين من غرب ألمانيا ، مخترقا كل الحواجز ، حتى وجد طريقه الينا ، تولى فيما بعد رئاسة « رابطة النقابة العمالية الحرة » سنوات عديدة ، والسكرتير الأول للاتحاد الاشتراكى الألمانى فى برلين الكبرى .

٤ — « أوتومار جيشكى » ، كان عمره آنذاك ٦٣ عاما . عضو فى الحزب الشيوعى الألمانى منذ أوائل العشرينات ، وعضو فى اللجنة العليا لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٣٢ م . وقضى اثنى عشر عاما فى معسكرات الاعتقال أثناء حكم « هتلر » استقبلوه بحرارة ، وأسند اليه فى نفس الوقت عملا جديدا .

أبدى هؤلاء الجدد — الذين جاءوا من الليمانات أو من معسكرات الاعتقال بعد أن قضوا فيها سنين طويلة — استعدادهم للقيام بما يكلفون به من أعمال دون أن يأخذوا فترة راحة مما قاسوه فى هذه السجون .

غرقنا فى العمل لدرجة أننا لم نلحظ تسليم ألمانيا الهتلرية ،

واحتفالات النصر التى أقامتهـا القـوات السوفييتية • فقد كلفنا « أولبريخت » فى ذلك اليوم بالذات بمهمات جديدة •

يجب أن تترك ادارة الأحياء جانبا بصفة مؤقتة ، اذ يجب علينا الآن تكوين ادارة لكل أنحاء برلين ، فلها الأولوية الآن ، ولو اقتضى الأمر الى سحب أشخاص من ادارات الأحياء ووضعهم للعمل فى ادارة المدينة •

فسألنا : « هل ينبغى على كل فرد فينا المشاركة فى هذا العمل » ؟

ـ « لا •• ليس هذا ضروريا ، يكفى أن يركز « مارون » و « جيبتنر » جهودهما فى هذا العمل ، فاذا لزم الأمر استدعى آخرون للعمل معهما » •

وعندما وجه الينا « أولبريخت » هذه التعليمات الجديدة ، اعتقدنا أن عملنا هذا لن تكون له نهاية : سوف نغير عملنا الآن فى مساندة ادارة الأحياء •

يجب أن نركز أنفسنا كلية فى أحياء شمال غرب ، وجنوب غرب ، وغرب برلين • اذ من المنتظر وصول الحلفاء الغربيين بعد شهر تقريبا • وحتى ذلك الحين يجب أن تكون ادارات الأحياء التى سيتسلمونها من القياديين المخلصين » •

ـ « هل أستطيع أن أذهب بضعة أيام أخرى الى الأحياء الشرقية ، فذلك أمر ضرورى » قدم هذا الرجاء واحد منا يظهر أنه وقع فى علاقة غرام فى حيه الذى اشتغل فيه حتى الآن •

ـ « لا •• لا يمكن هذا اطلاقا ، فابتداء من اليوم ، لن يذهب أحد الى برلين الشرقية ، فلدينا فيما بعد وقت كاف لذلك » •

وهكذا بدأنا عملنا فى الأحياء التى سيتسلمها فيما بعد الأمريكيون والانجليز والفرنسيون • كان فى استطاعتنا فى كل مكان الحصول على « عاملين نشطين » وتنحصر واجباتنا الآن فيما يلى : تدعيم ادارات الأحياء التى كونت سابقا وحل المشكلات التى تظهر فى الادارات عند الحكمدار ، والقيام بعمل تغييرات وتعديلات هنا وهناك ، وتبديل القوى الضعيفة بقوى أشد صلابة •

كنت دائرا طوال اليوم « كالمكوك » وتعرفت على عشرات من الناس فامتلأت مفكرتى بعناوين المناهضين للفاشية من مختلف الاتجاهات وكذلك أيضا بأسـماء الأخصائيين فى الشئون الاداريـة ، والفنية ، والمهندسين •

كان جزءا فقط من مجموعتنا مشغول — بجانب العمل العادى — بالتجهيز لتكوين ادارة المدينة • عقد « أولبريخت » اجتماعات متعددة لبحث هذا الموضوع مع « مارون » و « فينسر » و « جيبتنر » • كذلك سحب « مالى » و « ماتيوس كلاين » اللذين انضما فى هذه الأثناء الى « مجموعة أولبريخت » — من العمل فى ادارات الأحياء •

سمعنا منهما ذات يوم أنهما أثناء سيرهما فى حى « تيجيل » عثرا على اذاعة ، وفى « شارلوتينبرج » شارع « مازورين » على مركز اذاعة برلين • ويجب أن نهتم بها لنبدأ بث برنامج اذاعى — ثم وجهت العواصف فى الجلسة الينا ، حتى قال « أولبريخت » : « حسنا •• فلتبدأوا » •

فهم « مالى » و « كلاين » أن ذلك « تفويض عام » • وبعد يومين اقتحم « أربن بيك » حجرتى فى الصباح وقال لى :

« سيبدأ العمل ظهر اليوم » •

فسألته والنوم لم يزل فى عينى : « ماذا » ؟

— « الاذاعـــة طبعا » •

كان « مالى » و « كلاين » قد سحبا « أربن بيك » معهما فى الاذاعة •

— « ومالى بهذا » ؟

— « ينبغى أن تكتب النصوص للاذاعـــة الأولى ! فـ« مالى » و « كلاين » مشغولان جدا مع الناس فى الاذاعة فى شارع « مازورين » لدرجة أنهم لا يستطيعون كتابة النصوص ، ويجب علينا — نحن الاثنين — تجهيز شىء وارساله فى الساعة الحادية عشرة الى الاذاعة » •

وهكذا أملى « أربن بيك » بالاشتراك معى على عاملة الاختزال عندنا نصوصا لاذاعة برلين • كان أمامنا آخر عدد من جريدة « برافدا » — لم يوجد آنذاك شىء آخر — فأخذنا منه أخبارا ترجمتها بأسلوب ديمقراطى مناهض للفاشية •

ثم سمعنا ظهرا أول اذاعة من راديو برلين • وفى اليوم التالى لم نعد بحاجة الى كتابة النصوص بأنفسنا ، فقد أخبرنا « مالى » أن كل الجهاز الاذاعى موجود • وأبدى جميع الأشخاص استعدادهم للعمل مستقبلا فى الاذاعة طبقا « للمقتضيات الجديدة » •

استمرت اعادة تشغيل الاذاعـــة بواسطة « مالى » و « كلاين » أسبوعا تقريبا دون أن ينتبه أحد لذلك حتى هدر « أولبريخت » ذات يوم :

— « ماذا حدث ؟ أعطانى الأصدقاء السوفييت اليوم خبرا من راديو برلين استأنفت بث ارسالها فعلا قبل بضعة أيام » •

فدافع « مالى » عن نفسه : « ولكن •• لقد أخبرتك بذلك من قبل » •

فقال « أولبريخت » :

« آه •• حسنا ! فطبقا لما ورد فى اذاعة لندن ، يبدو الأمر الآن اوضحا ، فقد قبل ان اذاعة برلين قد تخلت عن كل دعاية شيوعية وتبث ارسالها الآن فى ثوب مناهض للفاشية • ولكن يجب عليكم فورا الاتصال بأصدقائنا الروسيين » •

وعد « مالى » و « كلاين » بذلك • وأصبحت الاذاعة « شيوعية » تقريبا • وبذلك فقدناهما فى عملنا فى ادارة الأحياء الى ما لا نهاية ، فقد ظلا فى الاذاعة ، ولم تكن مفاجأة لنا عندما عين — بعد وقت قصير — « هانز مالى » رئيسا لهيئة اذاعة برلين ، و « ماتيوس كلاين » رئيسا لقسم شئون العاملين فيها •

انعقد كل يوم أحد — بالاضافة الى الاجتماعات اليومية — قبل الظهر مؤتمر عام • اشترك فيه عدد من القياديين العاملين فى الحزب الشيوعى يتراوح بين ٨٠ ، و ١٠٠ شخص ، وكان معظمهم يعمل فى الادارات •

وهكذا كنا نحصل فى كل يوم أحد على صورة كاملة عن الوضع فى برلين ، فبعد أن يلقى القياديون تقاريرهم عن أحيائهم • يعطى « أولبريخت » تعليماته •

كانت جلسات هذا المؤتمر عموما جادة وواقعية ، غير أنه فى أحدها تخلل الاجتماع ضحكات عالية ، حينما كان أحد القياديين — وكان كبيرا فى السن يتكلم بالرطانة الحزبية الأصيلة التى كانت سائدة فى العشرينات — يقدم تقريرا عن العمل فى ادارة الحى ، فلم يذكر كلمة عن نشاطه الخاص ، فسأله « أولبريخت » :

— « ماذا تعمل أنت ؟ أنت تتحدث باستمرار عن الآخرين ، وأنت بأى عمل تقوم » ؟

— « أنا رئيس الشئون الدينية » •

أصيب الجميع بدهشة •

— « وما دخلك فى هذا » ؟

— « هذا واضح أيها الرفيق « أولبريخت » ! فعندما وزعت

المناصب أخذت هذا المنصب لنفسى طبعا ، يجب أن يكون هناك شخص يراقب ما يفعله رجال الدين ، اذ يوجد بينهم بعض المساكرين » .

ضجت القاعة بالضحك ، ولكن « أولبريخت » كان غاضبا :

« يجب أن تستقيل حالا ، فلا يعين فى هذا المنصب الا « قس » ، ويجب علينا الآن أن نعمل مع القوى التقدمية فى الكنيسة ، ولن نسمح لك بأن تخرب سياستنا الدينية » .

هدأت القاعة بعد أن قال « أولبريخت » هذه الكلمات الحادة . فنظر الرفيق العامل فى حى « فيدينج » حوله حائرا متسائلا ، فلوحظ أنه لم يفهم ما حدث أمامه ، اذ لم يستطع ادراك تعبير « القوى التقدمية فى الكنيسة » .

رأى « أولبريخت » أنه ليس من الضرورى أن يشرح الخط السياسى باختصار للقيادى العامل فى حى « فيدينج » واقتصر على التعنيف النقاسى .

وكان الحادث المفاجىء الثانى أكثر عنفا ، فقد اندلعت من كثيرين من قياديى برلين ذات يوم معارضة مباشرة وواضحة ضد « أولبريخت » .

اقتربت مناقشة يوم الأحد من نهايتها ، فقد انتهى عرض التقارير واعطاء التعليمات للادارات .

— « هل يوجد سؤال آخر » ؟

فقال رفيق كان يجلس فى احدى زوايا الصالة فى آخر صف :

« نعم .. هنا ! لقد سأل أحد الأطباء المناهضين للفاشية عندنا ، هذا السؤال : كيف يتصرف لو جاءته امرأة تعرضت لجريمة هتك العرض بالقوة ، وتريد اسقاط الجنين الذى جاء نتيجة لهذا ؟ لقد وعدته بأنى سوف آتيه بالرد ، ونرى نحن من ناحيتنا أن الموقف واضح فى مسألة الاجهاض فى مثل هذه الحالة » .

فأيده آخرون فى هذا الرأى :

— « هذه المسألة ملحة جدا ، ففى كل مكان يتحدث الناس عن هذا الموضوع ، ويجب علينا أن نعطى رؤساء الشئون الصحية خطا صحيحا وواضحا . ومن وجهة نظرى أنه يجب السماح رسميا بالاجهاض فى كل هذه الحالات » .

لم نسمع فى الصالة الا أصواتا مؤيدة لهذا الرأى .

قطع « أولبريخت » المناقشة وصاح بنغمة حادة :

ـ « عذا لا يمكن اطلاقا .. أنا أقفل باب المناقشة » .

غير أن الشيوعيين فى برلين فى مايو ١٩٤٥ ، لم يرضوا بالاستسلام المطلق ، واعتبروا المناقشة مستمرة ولم تنته بعد .

ولأول مرة فى حياتى أشهد ما لم أعتقد من قبل أنه ممكن الوقوع : صيحات معارضة مكشوفة ضد قيادى من أعلى طبقات الحزب :

« لا تعالج المسألة بهذا الأسلوب ، يجب أن نناقشها » .

« يجب علينا أن نتخذ موقفا من هذه المسألة » .

« يجب أن نعطى العاملات الحق فى الاجهاض » .

« لا يمكننا أن نتهرب دائما من كل المسائل المزعجة » .

كان « أولبريخت » واقفا على المنصة مقطب الجبين . تحدث واحد بعد آخر ، لم يعد الأمر قاصرا فقط على السماح بالاجهاض ، بل طلب البعض بأنه يجب أساسا اتخاذ موقف واضح وصريح من تعدى الجنود السوفييت : لا يجوز التهرب بعد ذلك بل يجب علينا بوصفنا شيوعيين ألمانيين التبرؤ ـ على الأقل ـ من هذه الأعمال ، واذا تطلب الأمر معارضتها أيضا علنا .

وأخيرا عندما هدأ الغضب ـ بدأ « أولبريخت » فى الكلام فقال بصوت جد :

« أكرر .. انتهت المناقشة فى هذا الموضوع ، ومن المستحيل من ناحيتنا السماح بالاجهاض كرخصة لازالة ما نتج عن جرائم الاغتصاب . وهؤلاء الذين يثورون اليوم على هذه الحوادث ، كان يجب عليهم أن يثوروا عندما بدأ هتلر بالحرب ولن نتراجع عن هذا الرأى مطلقا ، فأنا أعتبر أن هذه المسألة منتهية ولن أسمح بالكلام فيها مرة أخرى . وانتهى الاجتماع » .

انفض المشتركون فى هذا الاجتماع غاضبين متذمرين . كان الحاضرون من الشيوعيين « البرلينيين » متعودين على نظام الحزب الصارم سنين ، بل عشرات السنين ، غير أنه كانت عندهم الشجاعة الكافية لمعارضة ، ولكنها لم تكن كافية للوقوف أمام أوامر الحزب ، فلم تذكر هذه المشكلة الغريبة فى أى اجتماع بعد اليوم .

* * *

المهمات الخاصة

قيل لى ذات صباح : يجب أن نسافر اليوم الى حى « راينيكيندورف » فاترك كل ما فى يدك الآن » !

— « ماذا حدث » ؟

— « لا أدرى .. انزل حالا الى المكتب لمقابلة « أولبريخت » وضابط الاتصال السوفييتى ، فسوف يقولان لك كل شىء » .

شرح لى ضابط الاتصال السوفييتى :

« المسألة تتعلق بالآتى : ظهر فى حى « راينيكيندورف » « تروتسكيون » ، اذ يوجد فى وسط الشيوعيين فى هذا الحى ميول نحو « التروتسكية » .

كنت متحيرا بدرجة لا تصور ، الآن ! فى مايو ١٩٤٥ ، وبعد أسابيع قليلة من هزيمة الفاشية لهتلرية ، حيث يوجد لدينا أسس شعبية قليلة جدا لبناء الكيان الوجودى ، أكلف أنا بالذات بالبحث عن « تروتسكيين » مجهولين . أردت أن أسأل عما اذا كان من الممكن الانتظار على « التروتسكيين » حتى غد . ففاجأنى ضابط الاتصال السوفييتى بقوله : « هذه المسألة فى غاية الأهمية ! اذ تهتم بها أعلى المستويات . وينبغى أن أقدم تقريرا عنها بعد ظهر اليوم » .

وبعد دقائق كنت أجلس مع ضابط الاتصال السوفييتى فى العربة فى طريقنا الى « راينيكيندورف » لم أكن مهتما داخليا بهذه المسألة على الاطلاق ، فلو كانت هناك مطاردة لكانت مطاردة زعيم نازى عندى أفضل من مطاردة « تروتسكى » ، وهكذا فكرت فى الطريق لوضع خطة نحل هذه المسألة بأسرع ما يمكن دون أن نخلف آثارا سيئة .

« ربما كان من الأفضل أن أتحدث وحدى أولا مع الرفقاء فى ادارة الحى » .

وافق الضابط السوفييتى على ذلك .

وصلنا الى ادارة حى « راينيكيندورف » فتوجهت مباشرة الى نائب العمدة ، لأننا عينا فى هذه المناصب فى جميع الأحياء رفقاء نشطون ، ولأننى كنت أرى من الغباء الذهاب الى حى « راينيكيندورف » للبحث عن « تروتسكيين » ، فقد بدأت معه حديثا عاما عن الوضع فى الحى . ثم قلت له أخيرا :

— « على فكرة .. يوجد موضوع آخر ، لقد سمع الأصدقاء السوفييت بأنه قد ظهر هنا فى « راينيكيندورف » بعض « التروتسكيين » ، وهم مهتمون بالاستفسار عن حقيقة هذا الخبر ، وعلى كل فأنا أشك فى هذا الخبر ، ولكن أردت أن أستعلم عن مدى صحته » .

فقال الرفيق مبتسما :

« آه .. هذه المسألة ! نعم لقد مضى على ذلك الآن أسبوع . اجتمع بعض الرفقاء ، وفى أثناء المناقشة ، ذكر أحدهم اسم « تروتسكى » ولكن تحدث كل المشتركين فى الاجتماع ضد « تروتسكى » .

— « اذن .. أستطيع أن أبلغ بأنه لا يوجد هنا تنظيم « تروتسكى » أو ما يشبهه من منظمات ، ولم تكن هذه المسألة سوى سوء فهم فقط » .

— « طبعا .. لقد كانت حادثة عديمة الأهمية كلية » .

ودعته وانصرفت .

بدا السرور على وجه الضابط السوفييتى ، لأن المسألة قد وضحت ، وقال لى :

« سوف أشرح المسألة فى تقريرى كما وصفتها لى بالضبط » .

فوافقته على ذلك ، ولكن طافت بذهنى خواطر ونحن نقطع طريق العودة ، اذن دار حديث خاص بين بعض الرفقاء ، وظهر اسم « تروتسكى » فى هذه الجلسة ، فوصلت الأخبار الى أعلى المراكز السوفييتية ، فأثارت مثل هذا الاهتمام هناك ، حتى دفع ضابط الاتصال السوفييتى — وهو مسئول سياسى كبير — الى « مجموعة أولبريخت » لبحث هذه المسألة فورا !

كانت « المهمة الخاصة » التالية هامة لدرجة أنى لم أرسل اليها وحدى . ومرة أخرى باشر الضابط السوفييتى البحث عن هذه المسألة فقال بنغمة رزينة :

« يتعلق الأمر الآن بمسألة هامة وملحة جدا ، فقد وصلت أنباء بأنه هناك فى اذاعة برلين تسجيل لمحادثة « مولوتوف » التى أجراها فى برلين فى خريف عام ١٩٤٠ م ، وتفيد هذه الأخبار بأن هذا التسجيل موجود الآن فى أرشيف سرى فى مبنى الاذاعة فى شارع « مازورين » فى حى « شارلوتينبرج » ، وسوف يتسلم الانجليز هذا الحى ، ولست فى حاجة الى القول بان من المهم جدا ألا يقع هذا التسجيل فى يد الحلفاء الغربيين » .

شغلت هذه « المهمة الخاصة » بالنا جدا ، فوضع كل منا يده على قلبه .

واصل ضابط الاتصال حديثه :

« ولكن أقترح أن يأتى معى حالا اثنان من « مجموعة أولبريخت » لنذهب الى مبنى الاذاعة ، وهناك نبحث مع « هانز مالى » عن هذه الأشرطة ، فلم يعد وجود المادة فى مكان أمين ، من واجبنا ، بل من المهم العثور عليها » .

أمر « أولبريخت » بأن أقوم أنا و « جيبتنر » بهذه المهمة ، وبعد نصف ساعة كنا سويا مع ضابط الاتصال فى مبنى الاذاعة فى شارع « مازورين » . وعندما أردنا دخول « الأرشيف » منعنا حارس سوفييتى يرتدى الملابس العسكرية . قال لنا باللغة الروسية :

« لا يجوز لكم دخول هذا القسم » .

نجح الضابط المرافق فى الحديث مع الحارس — كان ضابطا ، وعلى ما أذكر ، من جهاز الأمن السوفييتى — محاولا اقناعه ، وأطلعه على أوراقه الشخصية الرسمية ، ولكنه كان متصلبا جدا .

« عندى أوامر بعدم دخول أى انسان فى هذا القسم » .

أسر الضابط المرافق بشىء فى أذنه ، فانتحيا بعيدا عنا لمدة بضع دقائق ، ثم عاد الضابط المرافق وقال :

« انتهى كل شىء ، سنعود أدراجنا ، لا تؤاخذونى على ازعاجكم بهذه المهمة ، ولكنى كلفت بها من مركز خدمتى على أنها هامة وملحة جدا ، فقد سويت المسألة ، فقد عثرت جهة أخرى على التسجيل قبل بضعة أيام ، ونقلته الى مكان أمين » .

لم يكن من الصعب التخمين بمن هى « الجهة الأخرى » وعلى كل حال فقد نفذت المهمة بسرعة ، وواضح أنها أسرع من الادارة السياسية الرئيسية للجيش الأحمر .

* * *

ميلاد ادارة مدينة « برلين »

« هذه هى حصص المواد الغذائية التى ستوزع ابتداء من ١٥ مايو ويجرى الآن طبع بطاقات التموين » . قال لنا « أولبريخت » ذلك وأعطى لكل واحد قائمة .

تأكدنا أن التوزيع الجديد للمواد الغذائية يشبه فى جوهره التوزيع السوفييتى ؛ فهنا أيضا فروق كبيرة بين العامل العضلى ، والعامل الفنى ، والمستخدم و « الآخرين »

تتراوح الحصة اليومية فى الخبز بين ٣٠٠ و ٦٠٠ جرام ، وفى اللحم بين ٢٠ ، ١٠٠ جرام ، وفى الدهنيات بين ٧ ، و٣٠ جرام ، وفى السكر بين ١٥ و ٢٥ جرام ، أما الحصص الشهرية فهى عبارة عن ١٠٠ جرام قهوة ، و ٢٠٠ جرام شاى ، و ٤٠٠ جرام ملح .

وتساوى سكان برلين فى حصة البطاطس فكانت ٤٠٠ جرام يوميا .

أسند الى ادارة برلين الاشراف على تقـرير وتوزيع المقـررات التموينية الجديدة عندما تبدأ عملها . قال « أولبريخت » فى اليوم التالى :

« يجب أن ننتهى من تكوين ادارة برلين ، فلدينا الآن عدد كاف من الأكفاء » .

كان هذا الاجتماع ارتجاليا بصورة جعلتنى أعتقد أن الأمر يدور حول الوصول الى حل وسط .

قال « أولبريخت » :

« أول شىء هو تعيين العمدة ، كنتم عند الدكتور « فيرنر » ما رأيكم فيه » ؟

لم يتحمس « مارون » و « جيبتنر » و « غينسر » لهذا العرض ، فقال أحد الحاضرين : « لا أدرى يا « فالتر » ! يبدو أن الدكتور « فيرنر » ليس الرجل المناسب ، وهو أيضا كبير السن » .

وقال له أحد أعضاء ادارة المدينة :

« لقد سمعت أنه ليس معتدلا مائة فى المـائة من الناحية العقلية » .

فرد « أولبريخت » : « لا بأس من هذا ، فعندنا النائب » .

على أى أساس يختار عمدة برلين !

ولحسن الحظ ، فقد ثبت أن التحفظات التى وجهت ضد الدكتور « فيرنر » لا دليل عليها ، لأنه كان رجلا ضليعا قويا .

وجه « أولبريخت » الحديث الى « مارون » : « والآن .. الى الأهم ! النائب الأول ، ومن الأفضل أن تتولى هذا المنصب يا « كارل » .

بدت الدهشة على وجه « مارون » ، فلم يكن مسرورا لعرض هذا المنصب الكبير عليه ، ثم قال : « لم أقم بمثل هذا العمل قط » .

فرد عليه « أولبريخت » : « ولكنك سوف تقوم به خير قيام » .

فقال « مارون » : « موافق ، على شرط أن يأتى معنا « فولف جانج » •

— « لا •• لا يمكن أن نعطيك « فولف جانج » فى ادارة برلين ، فسوف يظل هنا مؤقتا للأمور الطارئة » •

وهكذا عين نائب العمدة ، وأصبح واضحا من المناقشة التالية ، أن ادارة مدينة برلين تكونت بنفس الطريقة التى تكونت بها ادارات الأحياء ، ربما بفرق واحد — كما عبر « أولبريخت » عن ذلك — وهو أن رجالنا يجب أن يمثلوا تمثيلا قويا فى ادارة المدينة ، تواترت الأسماء واحدا بعد الآخر ، وازداد طول القائمة شيئا فشيئا ، وبعد ساعة واحدة سجل كل واحد منا على الورقة الموضوعة أمامه تكوين ادارة برلين المقبلة •

تولى « رجالنا » لثلاثة المناصب المهمة ، وليس معنى كلمة رجالنا هنا أنهم من القياديين البسطاء فى الحزب الشيوعى الألمانى ، بل كانوا من هؤلاء الرجال الذين كانوا منفيين فى الاتحاد السوفييتى : « كارل مارون » النائب الأول للعمدة ، و « أرتور بيك » رئيس قسم شئون العاملين ، و « لورنس » و « أوتو غينسر » رئيس قسم شئون التعليم •

انضم الى هؤلاء القياديين « الموسكويين » الثلاثة الذين تولوا حقيقة ، المناصب الحساسة ، اثنان من قياديى الحزب الشيوعى الألمانى • « أوتومار جيشكى » ، و « هانز بيندرتسكى » اللذان قضيا فى معسكرات الاعتقال سنين عديدة • لوحظ أنهما توليا منصبين دانيين (مكتب العمل ، والشئون الاجتماعية) ، فدل ذلك على الفرق الكبير فى التقييم بين قياديى الحزب الشيوعى الذين كانوا فى موسكو والآخرين الذين ظلوا فى ألمانيا •

كان « باول شفينك » الذى تولى منصب النائب الثالث للعمدة ، ورئيس قسم التخطيط أيضا من المجموعة التى كانت فى موسكو • وعندما عينه « أولبريخت » فى هذا المنصب ، كان لا يزال فى موسكو ، وذكر فيما بعد أنه فوجىء بهذا التعيين — ثم استدعى ، فوصل الى برلين بالطائرة بعد أيام قليلة • أما نائب العمدة الرابع « كارل شولتس » ورئيس قسم الشئون لتجارية « يوسف أورلوب » فقد عينا باعتبارهما من الديمقراطيين الاشتراكيين •

واعتبر العمدة الدكتور « فيرنر » ونائبه الثانى وفى الوقت نفسه رئيس قسم التموين الدكتور « هيرمس » ، ورئيس قسم الشئون

الصحية البروفيسور « زاوار بروخ » ورئيس قسم شئون الاسكان « شارون » ، ورئيس قسم الشئون الاقتصادية الدكتور « لاندفير » ، والقسيس « بوخ هولس » من « الوطنيين » •

أما القسمين الآخرين وهما شئون الأخبار ووسائل الاتصالات ، وشئون المؤسسات الحكومية ، فقد عين لهما رئيسين من المستقلين ، فأصبحت ادارة المدينة مركبة كالآتى : ٧ وطنيين ، و ٦ شيوعيين ، و ٢ ديمقراطيين اشتراكيين ، و ٢ مستقلين • وعلى عكس المجالس الادارية والمنظمات التى تكونت من « أعضاء الحزب » فيما بعد ، فلم يكن تكوين ادارة برلين فى مايو ١٩٤٥ م ديمقراطيا فحسب ، بل لم يكن الديمقراطيون والوطنيون فى المجلس — طبقا لما أخذته من ملاحظات : « مارون » و « فينسر » — رجالا من قش ، وانما كانوا شخصيات لها وزنها ، علما وخبرة فى مجال تخصصهم ، وعزة واستقلالا فيما يؤيدون أو يعارضون •

نشر تكوين ادارة برلين فى ١٧ مايو فى جريدتى (Tägliche Rundschau) و (Berliner Zeitung) وهما الجريدتان الوحيدتان اللتان كانتا تظهران آنذاك فى برلين •

أقيمت مراسم الاحتفال ببدء عمل الادارة الجديدة فى مبنى أعيد ترميمه من آثار الحرب جزئيا فى شارع « باروخيال » وزينت الصالة بهذا الشعار : « وحدة المناضلين ضد الفاشية ضمان لميلاد الشعب الألمانى من جديد » •

طلب حكمدار برلين آنذاك الجنرال « بيرزارين » من ادارة المدينة أن « تعاد الحياة الطبيعية الى مدينة برلين بأقصى سرعة ممكنة » • فأجابه عمدة برلين الدكتور « فيرنر » على ذلك قائلا : « لا يوجد اليوم فرع من فروع الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية الا ويجب بناؤه من جديد ، فقد حول « هتلر » برلين الى مدينة الخراب ، وسوف تحول برلين الى مدينة التقدم » •

وختم الدكتور « فيرنر » كلمته بقوله :

« نشكر اخواننا المناهضين للفاشية الذين أيدوا أفكارنا أثناء حكم « هتلر » ، وكافحوا من أجلها ، وسوف ترفرف روح الحب الصادق والانسجام والوئام فى أرجاء الامبراطورية الألمانية • لقد قادتنا وحدة

نضالنا ضد الفاشية الى النصر الأول ، فهى ضمان لميلاد الشعب الألمانى من جديد » •

مما لا شك فيه أن كلمة الدكتور « فيرنر » تطابقت مع الآمال التى كانت عند المناهضين للفاشية آنذاك ، ونقد تأثرت أنا أيضا بها عندما سمعتها ، ولكن ظهرت أحداث فى لأيام التالية عارضت تمام المعارضة كلمة الدكتور « فيرنر » المفعمة بالأمل فى وحدة النضال ضد الفاشية •

* * *

حل المجالس المناهضة للفاشية

قال « أولبريخت » فى أحد الاجتماعات العادية :

« تكونت فى الأيام الأخيرة مكاتب ولجان ، وأنظمة مختلفة تسمى نفسها اللجان المناهضة للفاشية ، أو المجموعات المعادية للفاشية ، أو المكاتب الاشتراكية ، أو المجالس لوطنية ، أو ••• أو ••• الخ » •

ورأيت أنا أيضا هذه المكاتب ثناء سيرى بالسيارة ، عبر شوارع برلين وكنت متوقعا بأننا سنتلقى تعليمات من « أولبريخت » بأن نتصل بهذه المكاتب ، لنساعدها فى عملها •

« ثبت بالتجربة — لم يقل « أولبريخت » من الذى أثبت ولا كيف أثبت — أن النازيين يحركون هذه المكاتب ، فهى منظمات متخفية ، هدفها التشويش على التطور الديمقراطى ، يجب أن نجد كل الوسائل لحلها ، فهذا هو الواجب الأهم الآن ، ويجب على كل واحد منكم أن يبحث فى حيه ، أين توجد مثل هذه المجالس ويعمل على حلها بسرعة » •

بدا لى أن كلام « أولبريخت » غريب جدا ، ولكنى أعتقد أن تقاريره سليمة لا اعتراض عليها ، وعلاوة على ذلك ، فليس من المستبعد قيام النازيين بمثل هذه المناورة : ألم يطلب مؤتمر جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية السابع فى صيف عام ١٩٣٥ م من الشيوعيين الألمانيين بأن ينضموا الى المنظمات النازية ، ويخربوها من الداخل ؟ ربما — هكذا فكرت — يحاول النازيون • بالغت مجموعة « أولبريخت » آنذاك فى تقدير نشاطهم مبالغة كبيرة الى حد القيام بعمل مماثل غير أن المقابلة الأولى المباشرة مع أعضاء المجلس المناهضة للفاشية التى تكونت حديثا ، أثبتت أنه لا يوجد بينهم نازى ، بل هم مجموعة من الرفقاء

الذين كانوا أعضاء فى الحركات السرية فى ألمانيا ، واقتنعت اقتناعا لا شك فيه أنهم ليسوا نازيين مقنعين ، بل رفقاء صادقين ومناهضين للفاشية •

وواضح أن انطباعات الزملاء الآخرين كانت متماثلة ، لأن كل التقارير اتفقت فى هذه النقطة • غير أن « أولبريخت » لم يتأثر بهذا أدنى تأثير ، فرد محاولات الدفاع — التى حاولها كل واحد هنا بلا استثناء — حيث قال بلهجة حادة :

« يجب أن تحل فورا ، ولن نسمح بأن تعاد هنا فى برلين أخطاء الحزب اليونانى • فهناك اتحد الرفقاء فى مجالس ، وفى غضون ذلك كون الأعداء جهاز الدولة » •

ولما كنت من أولئك القياديين الذين يفكرون تفكيرا خاصا فى القرارات السياسية ، لم أستطع أن أبعد فكرى عن التأكد من أن فى أدلة وحجج « أولبريخت » تعارضا ، فقد قال فى بادىء الأمر أن هذه المجالس يجب أن تحل لأن أعضاءها نازيون مقنعون ، ولكن سبب حلها الآن ، لأنها تبعد الرفقاء المخلصين عن العمل فى الادارة وتريد تجنب أخطاء الحزب اليونانى ، وأثناء الحملة ضد المجالس المناهضة للفاشية ، كنا نسمع من « أولبريخت » حججا مختلفة ، مرة هذه الحجج وأخرى تلك • ولم يبق ثابتا سوى شىء واحد فقط : الاصرار فى أوامره على حل المجالس المناهضة للفاشية ، وكل ما يشبهها من مجالس الأنشطة التى تكونت حديثا •

اعتبرت هذه الأوامر آنذاك خطأ ، ولكنى كنت قد تعودت اطاعة الأوامر ، بما يكفى لتنفيذ ما لا أقتنع به داخليا • غير أنى كنت أطمح أن ينفذ الحل بطريق متسمة بالحذر ما أمكن ، وأن يضم هؤلاء الرفقاء بقدر الامكان الى الجهاز الادارى •

تألمت جدا لحل المجلس المناهض للفاشية ، الذى كان يقوم بنشاط جبار فى حى « شارلوتينبرج » فى برلين ، وكان مقره آنذاك فى شارع « كورفور ستيندام » بالقرب من محطة مترو الأنفاق عند شارع « أولاند » كان معلقا فى مدخل المنزل يافطة مكتوبا عليها : « اللجنة الوطنية — ألمانيا الحرة » وكان الخط يشبه بالضبط خط جريدتنا التى كانت تظهر فى موسكو ، حتى الخطوط الملونة تحت الكتابة « الأسود — الأبيض — الأحمر » • لا يستطيع كتابة هذه اليافطة على هذه الصورة الا من قرأ جريدتنا « ألمانيا الحرة » •

كان المقر يأخذ دورا بأكمله فى هذا المنزل وكنت تسمع فى كل ركن أصوات الآلات الكاتبة ، وترى العاملين يجيئون ويروحون هنا وهناك • وكنت ترى على يفط الحجرات تحت كلمة « اللجنة الوطنية ــ ألمانيا الحرة » هذه الكلمات : « قسم المياه » ، « قسم صيانة الشوارع » ، « قسم الكهرباء والغاز » •

اكتشفت على أحد الأبواب عنوانا لم يكن من الأمور العادية فى مايو ١٩٤٥ م وهو « قسم المناجم » • أعطانى الجو العام انطباعا ، بأن هذه الادارة التى تعمل على أكمل وجه ، لا يمكن أن يكون نشاطها قاصرا على حى « شارلوتينبرج » •

سألنى واحد بأدب : « الى أى قسم تريد ؟ وما هو موضوعك » ؟

ــ « أريد مقابلة رئيسكم » •

ارتاع الرجل وقال : « هذا غير ممكن فهو مشغول جدا » •

لا فائدة هنا من المناورة ، أو العمل من وراء قناع فقلت له مباشرة :

« أنا من « مجموعة أولبريخت » ، وكنت قبل وقت قصير من العاملين فى اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » فى موسكو » •

فحيانى الرجل بحرارة وقال : « هذا رائع جدا » وسرعان ما استقبلنى الرئيس فشعرت بارتياح عندما رأيته ، أشيع فى الادارة أن واحدا من أعضاء اللجنة الوطنية فى موسكو قد وصل ، وسرعان ما تجمع العاملون الأكفاء ، وشرح الرئيس :

« كنا نسمع باستمرار اذاعة « ألمانيا الحرة » ونكتب منها الأحاديث المهمة ونطبعها ونوزعها » •

تأكدت من الحديث القصير أن هذا ــ كما كان غالبا آنذاك ــ لم يكن اختراعا ، بل يطابق الحقيقة ، فلم يعرف كل الموجودين عنده أسماء أعضاء اللجنة الوطنية فقط ، بل لا زالوا يتذكرون بعض البرامج الاذاعية بالتفصيل •

« نفذت لجنتنا الوطنية كل ما جاء فى بيانات ونداءات لجنتكم ، طبقا للظروف فى برلين » •

ثم أضاف بما يشبه الاعتذار :

« غير أنه لم يكن معنا جنرالات ، ولكننا بدلا من هذا قمنا بالاتصالات مع أوساط أخرى ، أسهمت فى مؤامرة ٢١ يوليو » •

وظهر من هنا أن المناهضين للفاشية فى هذه اللجنة الوطنية حققوا الفكرة الأساسية — وهى تكوين جبهة متحدة عريضة القاعـدة لكل المناهضين للفاشية ضد « هتلر » — تحقيقا نموذجيا : اذ يعمل معا فى هيئة القيادة أعضاء سابقون فى الحزب الشيوعى الألمـانى ، وفى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، وكذلك من الوطنيين ، ومن الأوساط الكنسية .

وكان الرئيس عضوا سابقا فى حزب العمال الاشتراكى ، وكان حزبا صغيرا تكون فى عام ١٩٣١ م وبذل أعضاؤه جهدا كبيرا أثناء حكم « هتلر » فى تكوين جبهة متحدة من المناهضين للفاشية .

بدأ التنظيم القيام بعمل الأشياء الضرورية الملحة بعد استسلام الجيش الألمـانى فى برلين مباشرة ، دون أن ينتظر تعليمات من أحد ، حتى ولا منا ، فاستدعى المهندسين ، والميكانيكيين والعمال الفنيين ، لمد المدينة بالغاز والمـاء والكهرباء . ونظمت عملية اخلاء الشوارع من الأنقاض ، وعينوا مشرفين على المستشفيات والمدارس — وباختصار عملت كل الأشياء التى كانت ضرورية فى تلك الأيام .

وبفضل القيادات النشطة الواقعية ، امتد نشاط اللجنة الوطنية سريعا الى خارج حى « شارلوتينبرج » ، ولم تشمل الاتصالات برلين كلها فقط بل وصلت مدنا أخرى .

بدأت التجهيزات بالتعاون مع بعض أساتذة كليات المهندسين ومع المؤسسات العلمية لتشغيل المرافق الصناعية والمناجم . وكذلك لم تنس المشاكل السياسية ، فقد أنشأت اللجنة الوطنية فى « شارلوتينبرج » — فعلا فى منتصف مايو ١٩٤٥ م — قسم الأرشيف حيث اجتمع أعضاء مؤامرة يوليو اجتماعات متوالية كى يسجلوا أحداثها بالتفصيل ، وكان الهدف من ذلك نشرها فى كتاب فى أقرب وقت ممكن .

كانت مقابلة لا تنسى أبدا . أفزعتنى الأفكار عندما تخيلت أن من المحتمل أن يهدم « أولبريخت » هذا التنظيم الحيوى الذى يعتبر نموذجا فيما قام به من جهود جبارة . فقلت لنفسى سوف أبذل كل ما فى طاقتى للحيلولة دون ذلك .

لم أقل لأصدقائى الجدد شيئا من تعليمات « أولبريخت » .

وفى المساء فى شارع « برينسين » قدمت تقريرى ورفعت فيه من جانبى شأن هذه اللجنة الى عنان السماء ، ولكن لم يأت هذا بنتيجة ، فقد قال « أولبريخت » :

« لابد أن يحل هذا الدكان الذى هو فى شارع « كورفورستيندام » •
فحاولت مرة أخرى مساعدة هؤلاء الأصدقاء المناهضين للفاشية ، ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل أيضا ، اذ قال لى « أولبريخت » :
« تذهب الى هناك غدا ، وتخبرهم بأنهم لابد أن يوقفوا نشاطهم ، فنحن لا نحتاج الى لجنة ، فلو كنت مصرا على الاعتقاد بأنهم أكفاء فتستطيع أن تأخذ بعضا منهم فى ادارة حى « شارلوتينبرج » •
وهكذا اتجهت فى اليوم التالى الى « شارلوتينبرج » •
كان رئيس اللجنة الوطنية قد دعا كل الأعضاء العاملين ومجموعة من الرجال الذين اشتركوا فى مؤامرة ٢١ يوليو • وانتظر الجميع بأعصاب مشدودة ، متشوقين الى ما سيقوله ممثل اللجنة الوطنية القادم من موسكو ، فقد أخبروا — لسوء الحظ — بطريقة رسمية دعائية ، أن المحاضر — الذى هو أنا — سيتحدث عن أسس توسيع نشاط حركة « ألمانيا الحرة » •
كان موقفا حرجا ، فقد كنت مقتنعا داخليا بأن هذا التنظيم المناهض للفاشية ليس له الحق فقط فى استمرار مباشرة نشاطه ، بل يجب أن نقدم له المساعدة وننضم نحن اللاجئين اليه ، وعلى العكس من ذلك فقد كانت هناك أوامر « أولبريخت » المشددة بألا يسمح لأى منظمة على الاطلاق ، وتحل كل المنظمات القائمة • لم أزل قريبا من النظام التربوى فى الاتحاد السوفييتى ، الذى أبعدنى عن فكرة عدم تنفيذ الأوامر ، والتصرف حسب اقتناعى • وضميرى الشخصى •

ولكنى قررت تنفيذ أوامر « أولبريخت » باحتراس وحذر حتى لا يصدم المناهضون للفاشية فى هذه اللجنة ، وحاولت جذب الكثير منهم — كلما أمكن ذلك — الى الادارات •

تحدثت عن تأسيس اللجنة الوطنية ، وعن نشاط اذاعة « ألمانيا الحرة » وعن أهدافنا ، وأخيرا انتقلت الى الموضوع الأصلى : رغم كل الجهود الجبارة التى بذلناها ، لم يتحقق هدفنا الأصلى ، وهو الاطاحة بـ« هتلر » بقوتنا ، بل حققته جيوش الحلفاء ، فنتجت آثار عن هذا الوضع ، ومن بين هذه الآثار أن سلطة الاحتلال — وهى فى هذه الحالة الاتحاد السوفييتى — لا تسمح فى الوقت الحاضر بقيام أى منظمات فى برلين ، بل سمحت فقط بتكوين ادارات ألمانية محلية

ومن هنا فيؤسفنى جدا اضطرارى الى ابلاغكم بأن استمرار نشاط اللجنة التى أسستموها ليس مسموحا به فى شكله الحالى •

سأل رجل كبير السن ، قدم نفسه على أنه أستاذ جامعى :

« هل معنى هذا أن لجنتنا الوطنية قد حلت » ؟

كان هادئا فى سؤاله ، ولكن لوحظ أنه كان يخشى سماع كلمة « نعم » • فقلت : « ليس من السهل على ، حقيقة ، أن أضطر الى أن أقول لكم هذا ، لأنى مقتنع بعمل هذا التنظيم الجبار ، ولكن التعليمات لا تسمح بوجود أى تنظيم على الاطلاق » •

فقال آخر ، ولكن كانت اللغة فى هذه المرة ثائرة :

« ولكنا لسنا أى تنظيم ، بل وحدة مناهضة للفاشية ، حددت هدفها فى مشاركة الجانب الألمانى ، ليس فقط فى حل المشاكل اليومية الضرورية بل أيضا فى تحويل التربية الفكرية والسياسية ، الى اتجاه ديمقراطى • نحن نريد تدعيم المبادىء التى وضعها الحلفاء للنضال ضد الفاشية ولتحويل تربية الشعب الى الأسلوب الديمقراطى » •

فهمت موقفه جدا ، لأنه كان يجب علينا أن نسر بقيام مثل هذا التنظيم ، ونحييه ، ونشجعه ، ونشترك فى تنشيطه — دارت بذهنى هذه الأفكار — ولكنى قلت له :

« أنا أفهم كل ما فى ذهنك ، ولكن أحب أن أشير مرة أخرى الى أن واجب المناهضين للفاشية بالذات هو الالتزام بتوجيهات قوى الاحتلال ، وأحب أن أؤكد لكم أن حل تنظيمكم لا يعنى بأى حال من الأحوال وقف نشاط كل فرد منكم ، فعملكم يجب أن يستمر فى اطار آخر •

أنت تعلم أنه قد تكونت فى كل مكان أجهزة ادارية جديدة مناهضة للفاشية غير أن هذه الأجهزة فى حاجة الى ذوى الكفاءات من المناهضين للفاشية • ومن الممكن جدا أن تعينوا جميعا فى هذه الادارات الجديدة » •

والآن •• رأيت وجوها ظهر عليها خيبة الأمل ، واستطعت أن أحس مشاعرهم • لا يريد هؤلاء أن يكونوا موظفين فى مكاتب • لقد اجتمعوا معا — متخطين كل مفاهيمهم السابقة عن الحياة — للكفاح سويا ضد « هتلر » ولتكوين وحدة متماسكة • واليوم ، بعد هزيمة الفاشية ، أرادوا أيضا أن يعملوا مشتركين فى منظمة نشطة مناهضة للفاشية فى بناء ألمانيا

جديدة ، وفى هذه اللحظة بالذات حيث تحقق الهدف الأول وهو فناء الفاشية ، يصدر أمر بحل تنظيمهم ! كانت خيبة أملهم كبيرة وأملى أيضا •

وأخيرا تقرر تنفيذ حل اللجنة الوطنية على مراحل • وكل من وافق على العمل فى الادارة ، يجب أن يعين ، وينبغى أن تنتهى اجراءات الحل والدمج فى الادارات الأخرى بعد ثلاثة أسابيع •

قال لى الرئيس عند توديعى ، بنغمة حزينة :

« آمل أن يسمحوا لنا على الأقل بهذا الوقت » •

رجعت مثقلا بالأحزان الى شارع « برينسين » ، وعندما وصلت كان الاجتماع قد بدأ منذ دقائق ، فسألنى « أولبريخت » :

« ماذا حصل فى هذا الدكان الهزلى فى « شارلوتينبرج » هل حللته اليوم » ؟

كان احتقار « أولبريخت » لهذا العمل الاستقلالى واضحا جدا فى هذا السؤال •

قدمت تقريرا عما حدث ، وبينت أنهم وافقوا على الحل فى مدى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع • فزفر « أولبريخت » زفرة طويلة ثم قال :

« أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ؟ هذا خبل ! سنرسل غدا رفيقا آخر » •

أرسل « أولبريخت » واحدا من جهاز الحزب المتصلين ولم يكن من الصعب تخيل ما حدث • وبعد أيام قليلة انتهى « العمل » فقد حلت اللجنة الوطنية ، وتراجع معظم الأعضاء يائسين الى حياتهم الخاصة •

قابلت بعضهم فيما بعد ، وكانوا قد عينوا فى الادارات ، فرأيت أنهم يقومون بأعمالهم فيها تنفيذا للأوامر فقط ، فأصبح نشاطهم روتينيا ، فقدوا الحماس والنشاط ، والحيوية ، وطبيعة المبادرة عندهم •

كان مصير اللجنة الوطنية فى « شارلوتينبرج » مثالا فقط ، ففى نفس الوقت حلت فى برلين عشرات من اللجان المماثلة التى قامت من القاعدة ، ولم يحدث هذا فى برلين فقط ، بل فى كل المدن الكبرى مباشرة بعد أن توطدت الادارة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وفيما بعد أيضا فى المنطقة التى تسيطر عليها قوى الاحتلال الغربية •

لن أنسى أبدا مقابلة قصيرة — فى تلك الأيام — بين « أولبريخت » وبين رفيق من مدينة « براندينبرج » •

ـ « كيف تسير الأمور عندكم فى الادارة » ؟

وجه « أولبريخت » هذا السؤال الى الرفيق مستفهما ، ولكنه كان بنغمة صادرة من الأعلى الى الأدنى • فرد الرفيق على ذلك بشرح موجز لنشاط الادارة ، ثم أضاف الى ذلك مفتخرا :

« وعلاوة على ذلك فقد كونا تنظيما مناهضا للفاشية » •

فسأله « أولبريخت » غاضبا : « كيف ذلك ، ماذا فعلتم » ؟

فأطلعه الرفيق على كتب عضوية لـ« لجنة مناهضة الفاشية » ، يشبه برنامجها تقريبا برنامج اللجنة الوطنية •

ثار « أولبريخت » : .

« من سمح لكم بهذا ؟ كيف تفكرون فى مثل هذا العمل ؟ يجب أن تحل « لجنتكم المناهضة للفاشية » فورا ، ويجب اعدام كتب العضوية ! ويجب عليكم أن تنتظروا حتى تصدر لكم التعليمات من الجهة الرئيسية » •

حاول الرفيق ـ وقد فزع من عنف « أولبريخت » تبرير موقفه :

« ولكن أيها الرفيق « أولبريخت » •• نحن لا نريد تجاوز أوامر الجهة الرئيسية » • ثم أشار الى تذكرة العضوية « طبعنا على بطاقة العضوية كلمة « مؤقت » ، كذلك كتب على كتب العضوية أنها محددة بزمن تنتهى بعد انقضائه » •

ـ « مؤقتة أو غير مؤقتة ، لابد من حل « دكانكم » وفى أسرع وقت »

علمت فيما بعد عن حوادث مماثلة فى « توربنجن » وفى « زاكسن » ؛ ففى « توربنجن » كون الذين كانوا فى معسكرات الاعتقال بعد الافراج عنهم مباشرة حزبا اشتراكيا اتحاديا تحت اسم « حزب العاملين » ، وحل هذا الحزب أيضا • وعندما تأسس طبقا لأوامر عليا ـ الحزب الاشتراكى الألمانى ، والحزب الشيوعى الألمانى ، فى منتصف يونيو ، طلب العضوية نصف أعضاء حزب العاملين المنحل ، وامتنع عن الانضمام كثيرون ـ من الذين كانوا أعضاء فى حزب العاملين المنحل ، لأنهم رفضوا العودة الى الأحزاب القديمة •

تكون فى « دريسدين » منظمة باسم « اللجنة الشعبية المناهضة للفاشية » وانضم اليها عدد يتراوح بين ٢٠٫٠٠٠ و ٣٠٫٠٠٠ عضوا • أما الآخرون الذين كانوا على استعداد للاسهام فى لجان مناهضة الفاشية ولكنهم لم يريدوا العمل فى حزب معين ، فقد تراجعوا الى الاهتمام بحياتهم الخاصة ، ومن المؤكد أنه حدث فى المدن الأخرى أمثلة شبيهة •

وهكذا قضى فى الفترة من أول مايو الى منتصف يونيو على كل الأنشطة التى جاءت من القاعدة ، اعتبرت هذا آنذاك خطأ فى بعض جوانب المشكلة • وحاولت تبريره ، بالضبط كما حاولت تبرير النواحى السلبية فى الاتحاد السوفييتى بأنها « خطأ مؤقت » • ولم يتضح لى الهدف من التعليمات التى صدرت آنذاك — ضد اللجان المناهضة للفاشية التى تكونت ذاتيا ، الا بعد انفصالى عن « الستالينية » ! لم يكن خطأ فى بعض جوانب المشكلة ، بل حطوة جوهرية فى سياسة « الستالينية » • اذ لا تستطيع « الستالينية » أن تسمح بقيام حركات ، ومنظمات شيوعية بدافع ذاتى مستقل من القاعدة ، لأن الخطر سيكون متوقعا دائما ، ألا وهو أن تحاول هذه المنظمات التحرر من رقابة « الستالينية » ، وتعلن عصيانها ضد التعليمات التى توجه اليها من الجهات العليا • ومن هنا لم يكن حل اللجان المناهضة للفاشية سوى تدمير أول لبنة فى بناء حركة اشتراكية مناهضة للفاشية ، من المحتمل أن تزداد قوتها فتستقل بارادتها • كان هذا هو أول انتصار للجهاز على أول حركة مستقلة للطبقات اليسارية المناهضة للفاشية فى ألمانيا •

كذلك كان لهذا الاجراء « الستالينى » جانب تكتيكى آخر ، اذ يبدو أن « أولبريخت » تلقى تعليمات من موسكو بالاستعداد لاعادة تكوين الحزب الشيوعى الألمانى • ولكن اللجان المناهضة للفاشية واللجان الشعبية صورت آنذاك الرغبة المتسلطة عند المناهضين للفاشية فى تكوين حزب اشتراكى موحد • تسلطت هذه الرغبة بنوع خاص على أولئك الذين قاموا بنشاط سرى ، أو الذين كانوا فى معسكرات الاعتقال • وسوف نعرف تفاصيل تعليمات موسكو الجديدة فى الأيام التالية •

* * *

« فيلهيلم بيك » و « الخط الجديد »

انتزعنا نحن « مجموعة أولبريخت » من العمال فى الأسبوع الأول من يونيو ، فذات يوم قبل الظهر وقف أمام منزلنا رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » عدد كبير من العربات الخاصة الكبيرة ، فقد وصل القياديون من موسكو : « فيلهيلم بيك » و « فريد أولسنر » و « باول فانديل » و « يوحنا • ر • بيشر » و « ايدفن هورنل » و « مارتا أربنوس » • وآخرون لم أعرفهم معرفة تامة • وجاء معهم أيضا بعض

خريجى مدرسة المناهضين للفاشية ، الذين حازوا الآن الثقة الكاملة ، ولفت نظرى من بينهم — بصفة خاصة — « برنارد بيئلر » وهو رائد سابق فى هيئة الأركان ، أعيد تثقيفه فى الاتحاد السوفييتى ، فاعتبر من المخلصين لـ« لينينية » ، واشترك حتى فى الاجتماعات الخاصة ، وأصبح عقب هذا مباشرة وزيرا للداخلية فى مقاطعة « براندينبرج » •

لم يكن هناك سوى وقت قصير للتحية وللأحاديث الخاصة ، اذ بعد وصول المجموعة مباشرة ، بدأ اجتماع خاص اشترك فيه من مجموعتنا « أولبريخت » فقط • وحجزت حجرتان بصفة مستمرة لهذه الاجتماعات •

لم يكن من الصعب ادراك أن المناقشات ليست مقصورة على برلين ، بل تتعداها الى آفاق بعيدة • وبعد يوم واحد من وصول زعماء القمة من موسكو وصل أيضا من « دريسدن » « أنتون آكارمان » و « هيرمان ماتيرن » و « كورت فيشر » • وهم من أعضاء « مجموعة آكارمان » التى غادرت موسكو بعدنا بيوم واحد وتوجهت الى منطقة عمليات قوات المـارشال « كونجيف » ، لينفذوا هناك عملا مماثلا لمـا كلفنا بعمله فى برلين •

استمرت الاجتماعات يومين ثم أخبرنا بالقرارات :

« لن يوجد حزب اشتراكى موحد ، وسيكون الحزب الشـيوعى الألمـانى منفصلا عن الحزب الاشتراكى الألمـانى ، وينبغى أن يكون الحزب الشيوعى الألمـانى فى غضون أيام قليلة ••

يجب البدء فورا فى الاستعداد لاصدار جريدة خاصة تنطق بلسان الحزب •

يلتمس تكوين الأحزاب الوطنية ، ويجب أن تكون مطابقة للحزب الديمقراطى السابق والمحور السابق ••

وبعد ذلك يجب تكوين رابطة ديمقراطية مذهضة للفاشية من الأحزاب الجديدة •

يجب على كل القوى أن تركز جهودهـا أولا لتأسيس الحـزب الشيوعى • وبعد التأسيس مباشرة يجب البدء باصلاح نظام التعليم •

وأخيرا يجب عمل كل الاستعدادات لتنفيذ برنامج الاصلاح الزراعى وذلك فى صيف عام ١٩٤٥ م » •

أصبح منزلنا رقم ٨ فى شارع « برينسين » — الذى كان المعمل فيه حتى الآن نشطا — خلية نحل ، فاجتماع ينفض وآخر ينعقد ، وعربات

جديدة تصل ، لتؤمن سير اتصالات زعماء القمة بالزعماء النشطين فى مختلف الجهات • وأملى « فريد أولسنر » — بعد وصوله بيومين — الكراسة التعليمية للحزب الشيوعى الألمانى الذى لم يؤسس بعد ، وبعد التأسيس مباشرة أعلن الخط الجديد على كل الأعضاء •

قال « أولسنر » :

« ان التعليم أهم شىء الآن ، يجب أن نعلم أكثر مما فعلناه فى أى وقت مضى • وقد تقرر — فعلا — عقد اجتماع أسبوعى لكل الأعضاء الذين سيعملون فى حقل التعليم فقط • يجب أن نهيىء الرفقاء للقيام بالواجبات الجديدة التى تختلف كلية عن واجبات ما قبل عام ١٩٣٣ م » •

انعقد اجتماع فى اليوم التالى ، واشترك فيه بعض الرفقاء النشطين فى برلين و « براندينبرج » و « بوتسدام » والمدن الأخرى ، وقيل فى هذا الاجتماع :

« الواجب الأساسى الآن هو الاستعداد لتأسيس الحزب ، وسيصدر بعد أيام قليلة أمر من المارشال « شوكوف » بالسماح للأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية ، والى أن يحين ذلك الوقت يجب علينا أن نكون قد انتهينا من وضع الحجر الأساسى • فالوقت من ذهب • وسيصدر — بعد الأوامر بالسماح للأحزاب مباشرة — بيان تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى ويذاع على الشعب •

لم يكن تكوين الحزب الشيوعى الألمانى ، والحزب الاشتراكى الألمانى منفصلين ، معارضا فقط للتعليمات التى تلقيناها من موسكو فى مارس ١٩٤٥ م ، بل كان معارضا أيضا معارضة مباشرة لقرار مؤتمر الحزب الشيوعى الألمانى الذى انعقد فى « برن » فى أوائل عام ١٩٣٩ م • فقد ذكر بوضوح فى هذا القرار الرسمى الأخير للجنة المركزية أنه يجب انشاء حزب ثورى موحد من الطبقة العاملة الألمانية • ووجه نداء آنذاك الى الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين بتكوين تنظيمات موحدة للحزب الموحد الذى سينشأ مستقبلا من الطبقات العاملة •

لم يغب عن فكرى أن المسائل الأخرى فى التعليمات الجديدة التى أحضرها معه « فيلهيلم بيك » ، كانت متعارضة مع تلك التعليمات التى تلقيناها فى أوائل عام ١٩٤٥ م ، فقد قيل لنا آنذاك أن النشاط السياسى للشعب الألمانى يمكن مبدئيا أن ينبسط فى اطار حركة كبيرة تشمل

كل المناهضين للفاشية فى « الرابطة الديمقراطية المناضلة » • والآن عكس ذلك فقد تحدثوا عن تأسيس أحزاب سياسية •

وقيل آنذاك بأن الاصلاح لن ينفذ قبل صيف عام ١٩٤٦ والآن ينبغى أن ينفذ الاصلاح الزراعى بعد تأسيس الحزب مباشرة فى صيف عام ١٩٤٥ م • حتى فى أوائل مايو بعد وصولنا الى برلين ، قيل لنا : انه لن يسمح فى الفترة الأولى الا باصدار الجرائد المناهضة للفاشية غير الحزبية ، والآن عكس ذلك ، فقد صـــدرت الأوامر بالاستعداد لاصدار جريدة تنطق بلسان الحزب •

« انتهى عمل « مجموعـــة أولبريخت » بوصول الزعماء من موسكو ، وبالتأسيس المرتقب للحزب الشيوعى الألمـــانى • وكان قد تغير وجهها عن طريق انفصال بعض الرفقاء عنها ، بتعيينهم فى ادارة مدينة برلين ، وانضمام آخرين اليها •

أعلنت ـــ فى اجتماع لمجموعة خاصة ـــ الواجبات الجديدة ، ثم وزع علينا العمل ، فلم يعد « لمجموعة أولبريخت » وجود بعد أن نفذت مهمتها •

حصل أعضاء « مجموعـــة أولبريخت » ـــ كلهم تقريبا ـــ بعد حلها على مناصب كبيرة فى الحزب وفى أجهزة الدولة فى المنطقة الألمـــانية ، الواقعة تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى ، ولكن لم يذكر فى ملفاتهم أنهم عملوا فى « مجموعة أولبريخت » • واستمر الاعتقاد سنين عديدة بأن الحزب الألمـــانى الشيوعى ـــ مثل كل الأحزاب الاخرى ـــ لم يتكون الا بعد صدور أمر المـــارشال « شوكوف » فى ١٠ يونيو ١٩٤٥ •

بدا أنه لم يكن من المستحسن ـــ على الأقل فى الفترة الأولى بعد عام ١٩٤٥ ـــ التحدث عن نشاط « مجموعة أولبريخت » والا وضح الاتصال الوثيق باللاجئين السياسيين الذين كانوا فى موسكو • لم يظهر شىء عن نشاطها الا بعد سبع سنوات ، فقد كسر جدار الصمت فى مايو ١٩٥٣ م عندما نشرت خطب « أولبريخت » ورسائله تحت عنوان « فى تاريخ الحركة العمالية الألمـــانية » اذ يوجد فى الجزء الثانى ـــ والكتاب ثلاثة أجزاء ـــ خطاب من « فالتر أولبريخت » الى « ديمتروف » بتاريخ ٩ مايو ١٩٤٥ م يبين فيه نشاط « مجموعة أولبريخت » •

« ومن خطاب الى الرفيق « ديمتروف » : ٩ مايو ١٩٤٥ م :

ركزنا عملنا بالدرجة الأولى على الاختيار من المناهضين للفاشية

لادارات الأحياء ولادارة برلين • وقد حيل مبدئيا فى كثير من الأحياء بين الشيوعيين الذين قاموا بأعمال سرية ضخمة وبين ادارات الأحياء •

ظهرت اليوم علنا منظمات كانت تباشر نشاطا سريا فى الماضى مثل : مكاتب الحزب الشيوعى الألمانى ، و للجان الشعبية ، ولجنة « ألمانيا الحرة » ، ولجان ٢٠ يوليو ، وقد ألغينا هذه المنظمات ، وأفهمنا الرفقاء أنه يجب على كل القوى تركيز جهودها فى العمل فى ادارة المدينة • وان يصفوا هذه المنظمات • وبالنسبة لتكوين جهاز الادارة ، فقد أمكن تجميع مجموعة كبيرة من القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية •

لم يزل عدد من الأوساط والاتجاهات السياسية مغلقا أمامنا ، اذ ليس للشيوعيين سوى اتصال بسيط بأفراد هذه الأوساط والاتجاهات السياسية ، وسوف يستمر البحث عن الرفقاء وقتا طويلا ، لأنه لا يوجد الآن جرائد ولا تثقيف سياسى •

ونحن نرى أن نبدأ باصدار جريدة ديمقراطية مناهضة للفاشية • بعد تنظيم ادارة المدينة بأسبوع تقريبا • خرجت مجموعة كبيرة من القياديين من السجن » •

(ف • أو W.U)

هذه هى الوثيقة الوحيدة التى نشرت رسميا حتى اليوم عن « مجموعة أولبريخت » فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

* * *

اعادة تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى

لم يحضر زعماء القمة معهم من موسكو تعليمات فقط ، بل أحضروا البيان التأسيسى للحزب الشيوعى الألمانى الجديد أيضا ، فعقدوا اجتماعا بعد وصولهم بيومين فى مقر خاضع لقيادتنا — كان على ما أذكر فى شارع « برينسين » ناحية شارع « هوهينلوهى » — مع أعضاء الحزب العاملين ، وكان عدد الحاضرين ٨٠ رفيقا تقريبا ، كانوا قد استدعوا للعمل معا فى الأربعة أسابيع الماضية •

كان الجميع ينتظر بأعصاب مشدودة لما سيقال فى هذا الاجتماع ، لأنه قد أشيع أن البحث سيدور فى هذا اليوم حول اعادة تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى •

وبعد تمهيد قصير قرأ « أولبريخت » البيان التأسيسى الذى

سيعلن به فى اليوم التالى قيام الحزب الشيوعى الألمانى • بدأ البيان بشرح آثار حكم « هتلر » وما خلفته الحرب ، ثم تساءل عن المذنب والمسئول • وتوصل منطقيا — استقبل الحاضرون هذا الاستنتاج بتصفيق حاد — الى أن وباء الفاشية استطاع الانتشار فى ألمانيا « لأن مجرمى حرب عام ١٩١٨ والمسئولين عنها لم يعاقبوا ، ولأنه لم يكن هناك نضال لتحقيق ديمقراطية حقيقية » • ومن المفروض الآن عدم تكرر خطأ عام ١٩١٨ م ، والتغلب على انقسام الشعب الخلاق ، وعدم التسامح اطلاقا مع النازية والرجعية •

تقول البنود الهامة فى بيان التأسيس :

« أصبح من الأمور المشروعة ، بعد القضاء على الهتلرية مسألة اعادة الديمقراطية فى ألمانيا ، ومسألة اعادة بناء الديمقراطية الشعبية ، والبدء باتمام ثورة عام ١٨٤٨ م ، وازالة البقية الباقية من الاقطاع ازالة تامة ، والقضاء على عسكرية بروسيا الرجعية ، وذوائبها السياسية والاقتصادية • ونرى أن من الخطأ اجبار ألمانيا على انتهاج النظام السوفييتى ، لأنه لا يتفق مع ظروف التطور الحالية فى ألمانيا •

ونرى أكثر من هذا ، أن مصالح الشعب الألمانى فى الوضع الحالى لألمانيا يحتم انتهاج طريق آخر ، وبالذات طريق اقامة نظام ديمقراطى مناهض للفاشية ، فى ظل جمهورية ديمقراطية برلمانية ، تؤمن فيها كل الحقوق الديمقراطية والحرية للشعب » •

ثم بدأ « أولبريخت » يقرأ مبادىء الحزب الشيوعى الألمانى التى صيغت فى عشر نقاط ، ولم تخرج عن برنامج عام ديمقراطى مناهض للفاشية ، فلم يذكر « ماركس » ولا « انجلز » حتى لم يرد مفهوم الاشتراكية فى هذا البيان التأسيسى للحزب الشيوعى •

فقد ورد فى مقدمة البنود اتمام ازالة ما تبقى من نظام « هتلر » وتطهير الجيش من النازيين النشطين ، وعقاب كل مجرمى الحرب الكبار ، والنضال ضد الجوع والبطالة والتشرد ، والعمل على عودة الحياة الطبيعية ، واعادة تشغيل مرافق الانتاج •

وكانت مفاجأة ، عندما قرأ « أولبريخت » :

« اطلاق التجارة الحرة اطلاقا تاما ، والنشاط التعاقدى على أساس الملكية الخاصة » •

وطالبت ثلاثة بنود أخرى باعادة الحرية الديمقراطية • وبناء

الأنظمة الادارية الديمقراطية المستقلة • كذلك تنظيم تعريفة الأجور وشروط العمل ، والانتخابات الديمقراطية لمثلى العمال والمستخدمين والموظفين ، وعلاوة على ذلك ، فقد طالب البيان بمصادرة كل أملاك النازيين ومجرمى الحرب وتسليمها الى الدولة ، على أن تديرها ادارة مستقلة ، وبالاصلاح الزراعى • وبنقل ملكية كل الشركات التى تركها أصحابها الى الدولة على أن تديرها ادارة مستقلة •

وتحدثت النقطتان الأخيرتان فى البيان عن التعاون الأخوى المشترك مع الشعوب الأخرى ، والالتزام بدفع التعويضات :

« يجب أن توزع الالتزامات توزيعا يضمن أن يتحمل الأغنياء الجزء الأكبر منها » •

وختم البيان بالاشارة الى أن هذا البرنامج يمكن أن يؤخذ أساسا لاقامة رابطة الأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية •

وعندما انتهى « أولبريخت » من قراءة البيان ، خيم السكون على أنحاء القاعة ، وكان واضحا أن الرفقاء وخاصة أولئك الذين عاشوا فى ألمانيا أثناء الحكم النازى — وكانوا أغلبية الحاضرين — كانوا يتوقعون من هذا البيان أكثر من ذلك •

كانت المناقشات الحرة لا تزال موجودة بين الشيوعيين فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، فعبر الرفقاء بصراحة عن آرائهم دون تزويق أو تنميق فى الكلام •• طلب الكلمة رفيق من « فيدينج » :

— « أيها الرفيق « أولبريخت » ! هذا البيان مضبوط وضرورى — والكل متفق فى هذا — ولكن هناك نقطة غامضة : ما هو الفرق بين هذا البرنامج وبين برنامج حزب ديمقراطى آخر » ؟

ضحك « أولبريخت » ضحكة قصيرة ، ثم قال بلهجة « زاكسينية كلاسيكية » :

« سوف يتبين لنا هذا سريعا أيها الرفيق ! انتظر قليلا ! » • وبعد الغمز بهذه الكلمات أعطيت التعليمات : البدء فورا بتجميع القياديين المخلصين فى كل جزء من أجزاء المدينة وأحيائها ، وتجهيز كل الترتيبات حتى يمكن عقد اجتماعات الحزب مباشرة بعد اذاعة البيان التأسيسى ، الاستعداد للاجتماعات استعدادا كاملا ، وتعيين القيادة التى تقترح فى كل اجتماع على حدة ، ولكن ينبغى أن ينفذ ذلك « دون ضوضاء » حتى

يصدر أمر سلطة الاحتلال السوفييتية بالسماح للأحزاب السياسية الديمقراطية المناهضة للفاشية •

فسأل أحد الحاضرين :

— « كم من الوقت عندنا الآن ؟ ومتى سيسمح بالأحزاب رسميا » ؟

— « نتوقع أن يصدر الأمر فى ١٠ يونيو ، وفى اليوم التالى سنذيع بياننا التأسيسى وسيظهر العدد الأول من « جريدة الشعب الألمانية » • Deutsche Volksxeitung — وهى التى تنطق بلسان الحزب — فى ١٣ يونيو ! » •

لم يبق الا ثلاثة أو أربعة أيام • انفض المجلس ، وسافر الرفقاء الى أحياء المدينة المختلفة للقيام بكل الاستعدادات • وجندنا جميعا للتحدث فى الاجتماعات الحزبية ولم أنس اجتماعا فى أحد أجزاء المدينة فى حى « شارلوتينبرج » حيث ألقيت محاضرة فيه كان عدد الحاضرين ١٢٠ رفيقا تقريبا ، بدا على وجوههم الرضا والفخر والسرور لأنهم أخيرا سيعودون الى الحزب الشيوعى •

وبعد الانتهاء من المحاضرة بدأت المناقشة ، وسرعان ما ذكر فيها أيضا تعدى الجيش الأحمر على الأعراض ، الذى سبب آنذاك قلقا كبيرا للشيوعيين فى برلين ، وفى هذه اللحظة طلب الكلمة رفيق كان يجلس فى زاوية خلفية فتحدث بعصبية عن الحوادث التى شهدها بنفسه ، وعن الأضرار التى لحقت الشيوعيين الألمانيين بسبب تصرف الجيش الأحمر وعن النتائج الحتمية التى ستنال الشيوعيين الألمانيين من جراء هذا التصرف •

لم تظهر مثل هذه الكلمات فى المناقشة ، فسيطر على القاعة توتر محموم ، ربما كان الجو الذى يقود الرفقاء الى أن تصيح أفكارهم السرية بما يقتنعون به داخليا « •••• وأقول لكم يجب أن نبنى الاشتراكية فى ألمانيا بدون الجيش الأحمر ، واذا لزم الأمر ، حتى ضد الجيش احمر » •

جلس الجميع لحظات كالأحجار ، لا يتحركون ، ثم سمعت من جوانب مختلفة همسات تخوف ، وأيضا صيحات احتجاج أشد قسوة •

قطع رئيس الجلسة النقاش حول هذا الموضوع بسرعة حين قال :

« الكلمة الآن للرفيق « ليونهارد » •

كنت فى هذه اللحظات لا أزال وفيا للحزب •

— « آمل ألا تكون صيحة هذا الرفيق تعبيرا عن رأى الحاضرين هنا •

فليس من واجبنا التحدث عن تصرف قوات سلطة الاحتلال ، بل مناقشة واجباتنا العملية الخاصة » .

صفق معظم الحاضرين ، وتحولت المناقشات الى واجبات الحزب فى الحى .

تذكرت وأنا فى طريق العودة جملة هذا الرفيق : « يجب أن نبنى الاشتراكية فى ألمانيا بدون الجيش الأحمر ، واذا لزم الأمر ، حتى ضد الجيش الأحمر » .

« ضد الجيش الأحمر » — هكذا فكرت فى هذا المساء — هذا خطأ طبعا ، فقد قال الرفيق هذه الجملة وهو ثائر الأعصاب ، ولكن بدون الجيش الأحمر ؟ ولم لا ! ألم آمل أنا أيضا أن يسير تطور الاشتراكية فى غرب أوروبا على نحو يغاير ما فى الاتحاد السوفييتى ؟ ألم يكن هذا رأيى فى أوائل عام ١٩٤٣ م ، عندما حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ولكن لم يكن عندى وقت للتفكير فى هذا ، فقد أسدلت الأيام التالية الستار على كل ما شاهدنا فى أسابيع « مجموعة أولبريخت » المليئة بالأحداث .

وعندما سمح للأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية فى ١٠ يونيو كما جاء فى الأمر الذى أصدره المارشال « شوكوف » كانت حروف البيان التأسيسى قد جمعت فى المطبعة ، ويمكن أن يبدأ الطبع بين لحظة وأخرى . وجه « أولبريخت » الكلام الى والى « أربن بيك » :

— « من الأفضل أن تظلا فى الجريدة حتى يمكننا العثور على من يقوم بعملكما ولكن يا « فولف جانج » لا تمكث طويلا فى الجريدة ، فسوف تتولى شيئا آخر فى الحزب » .

اتجهنا الى المطبعة التى كانت فى بيت متهدم فى وسط المدينة ، لتجهيز اللازم . وقبل البدء فى الطبع بلحظات وصل الينا « آكارمان » وقال : « سوف يأتى « داليم » الى برلين فى الأيام القادمة ، ويجب أن يوضع اسمه على البيان التأسيسى » .

— « فى أى مكان » ؟ — لقد عشنا فى الاتحاد السوفييتى وقتا كافيا ، تعلمنا فيه أن ترتيب الأسماء له أهمية كبرى — .

— « فى المكان الثالث ، بعد اسم « أولبريخت » مباشرة وقبل اسمى » .

وقع على البيان ستة عشرة ، عاش ثلاثة عشرة منهم أثناء عهد « هتلر » كله فى الاتحاد السوفييتى ، تصدر الموقعين « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « أنتون آكارمان » • وكان أيضا من ضمن مجموعة اللاجئين أعضاء الحزب الشيوعى السابق الذين عادوا من موسكو « هيرمان ماتيرن » عضو سابق عن الحزب الشيوعى فى برلمان مقاطعة شرق بروسيا (Ospreussen) و « جوستاف سوبوتكا » عضو سابق عن الحزب الشيوعى فى برلمان مقاطعة منطقة الرور (Ruhrgebiet) ويهتم بنوع خاص بمسائل الفلاحين ، والشاعر « يوحنا • ر • بيشر » و « ايللى شميت » زوجة « أنتون آكارمان » آنذاك ، ووقعت على البيان باسمها الحركى « أرينى جيرتنر » الذى كانت تعرف به فى موسكو ، و « مارتا آريندسى » كانت رفيقة النضال مع « كلارا ستكين » ، كذلك « بيرنارد كونين » مدرسى السابق فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • وانضم اليهم من « مجموعة أولبريخت » اثنان فقط هما « أوتو فينسر » و « هانز مالى » •

وبجانب الثلاثة عشرة اللاجئين ، وقع ثلاثة من القياديين الذين كانوا يقومون بنشاط سرى فى ألمانيا ، أو كانوا فى معسكرات الاعتقال • وكان اثنان منهم — وهما « أوتومار جيشكى » و « هانز بيندريتسكى » — يعملان فى « مجموعة أولبريخت » منذ الأيام الأولى من مايو • كان « فرانس داليم » — وكان الأمريكيون قد أطلقوا سراحه من معسكر الاعتقال — متوقعا حضوره فى الأيام التالية •

دلت التطورات اللاحقة على أن مجموعة من الموقعين على البيان — مثل « سوبوتكا » و « ايدفين هورنل » و « ميخائيل نيدركيرشنر » و « مارتا أريندسى » — قد ذكرت أسماءهم فقط على أساس أنهم شيوعيون معروفون من عهد ما قبل عام ١٩٣٣ م فلم يقوموا بدور يذكر فى التطورات اللاحقة فى الحزب •

وضعنا البيان فى آلات الطباعة ، وبدأنا فورا بالعمل التالى : تجهيز « جريدة الشعب الألمانية » وعندما اشتغلت آلات الطباعة ركبت السيارة مع « باول فانديل » و « فريتس أربن بيك » وانطلقنا ، ثم توقفت السيارة أمام مبنى متهدم فى وسط المدينة ، فى شارع « ماورا » على ما أذكر •

— « هل سنكون هيئة التحرير هنا » ؟

لم تبد عليه الأبهة . اذ وضعت فى الحجرات بعض المكاتب والكراسى ، ولم يكن له شبابيك .

ولم نكد ننتهى من القاء نظرة عى الحجرات حتى حيانا رفيق كان قد أسند اليه قبل بضعة أيام حل المشاكل الفنية فى الجريدة الجديدة ، وأثبت هذا الرفيق جدارة ، فقد استطاع فى اليوم الأول بمساعدتنا تأثيث الحجرات نسبيا ، وأحضر فجأة أعدادا كبيرة من الآلات الكاتبة ، ورفوف الكتب . مضت ساعة أخرى ثم وصلت فتاتان لأعمال الاختزال والكتابة على الآلات الكاتبة ومن المحتمل أنهما أرسلتا عن طريق هذا الرفيق الذى يبذل جهودا جبارة لتجهيز مقر الجريدة .

هىء كل شىء لبدء العمل ، واتفقنا سريعا على أن يكتب كل منا شيئا فى موضوع معين ، فكلفت بقراءة أعداد آخر سنة من جريدة « ألمانيا الحرة » واستخراج شىء منها يناسب احتياجاتنا الحالية ، وبعد ساعة أوضحت أصوات الآلات الكاتبة أن تحرير جريدة الحزب الشيوعى الألمانى تقفز الى الأمام نحو الظهور .

ظهر فى العدد الأول من « جريدة الشعب الألمانية » — كما كان مقررا قبل ذلك — البيان التأسيسى للحزب الشيوعى الألمانى . وفى نفس اليوم تلقيت التكليف الكبير أيضا : « يجب علينا غدا أو بعد غد جمع كلمات التأييد للحزب الشيوعى الألمانى . سافر بالسيارة فى برلين شرقا وغربا ، ودون كل الكلمات التى يعبر بها الشعب عن البيان . ولكن لا تجمع كلمات رفقائنا ، بل أسئلة ومقابلات مع الناس العاديين فى الشوارع . توجد عربة فى الخارج فيمكنك أن تأخذها » .

— « ان المقابلات الصحفية مع الناس فى الشوارع أسهل من تعيين عمدة » . قلت ذلك لنفسى ، وعزمت على البدء فى هذا العمل ! وعندما سرت بالعربة بضعة دقائق تبخر تفؤلى . كيف العمل بالضبط ؟ هل أفاجىء الناس العاديين بالأسئلة ؟ لم أكن فى يوم ما محررا صحفيا ، أجمع أقوال الناس من الشوارع — ولكن تكليف الحزب هو تكليف الحزب ! كلما رأيت مجموعة من الناس واقفين فى الشارع أوقفت العربة وتغلبت على الخوف وسألتهم عن رأيهم فى البيان التأسيسى للحزب الشيوعى .

كانت الاجابات كوارث :

« أى بيان ؟ وأى حزب » ؟

« لم أسمع بمثل هذا البيان » !!

« ماذا ؟ هل يعود حزب مرة أخرى ؟ لقد طفح الكيل من الحزب السابق » .

« لا أهتم اطلاقا ببيانكم » .

« أليس عندك ما يشغلك غير هذا أيها الشاب » ؟

وعندما رجعت الى العربة دونت كل الأجوبة ، وان كنت لا أحتاج اليها وبعد البحث ثلاثة ساعات فى ستة أحياء من أحياء برلين عن رد فعل البيان التأسيسى للحزب الشيوعى الألمـانى عند الشعب ، توقفت متعبا أمام دار بلدية « شارلوتينبرج » .

قابلت أحد القياديين الذين عينتهم فى ادارة الحى فقصصت عليه حظى السيء .

ـ « هل تريد آراء تأييد من الشعب بالاسم والعنوان ؟ ليس من الرفقاء بل من أفراد الشعب » ؟

ـ « نعم .. وينبغى أيضا أن يكون من بينهم أفـراد من الطبقة المتوسطة » .

ـ « حسنا .. سأرسل لك كل شيء » .

وبعد وقت قصير وصلت الاجابة التى جمعها ، فرأينا أنه قد التزم فيها افتراض « بأن يكونوا من الطبقة المتوسطة » حرفيا . ثم جلست فى مقر هيئة التحرير مشغول البال أمام أسماء من القصابين والعمال الحرفيين ـ وبالذات من شارع « كورفورستيندام »(١) ـ عبروا بحماس عن الحزب الشيوعى الألمـانى ، كتبت ـ متضايقا ـ مقدمة كبيرة ، وخاتمة طويلة ليس فيها شيء مما جاء فى كلام هؤلاء الناس ، ولكن من المفروض أن يشرح آراءهم . وظهر المقال بعنوان مثير ـ ولكننى قررت ألا أقوم بعد هذا اليوم بعمل صحفى يجمع آراء الناس حول موضوع ما .

أذيع بيان تأسيس الحزب الشيوعى الألمـانى رسميا فى ١٢ يونيو ١٩٤٥ م فى القاعـة الكبرى فى ادارة مدينة برلين ، وكان عدد الحاضرين ٢٠٠ شخصا تقريبا ، كان معظمهم من موظفى ادارة برلين ، ومجموعة كبيرة من المناهضين للفاشية . وكان هذا هو الاجتماع الرسمى الأول فى برلين بعد الحرب . تحـدث فى هذا الاجتمـاع « فالتر أولبريخت »

---

(١) سكان هذا الشارع من الطبقة الراقية . م . شامة .

و « جوستاف داريندورف » • فألقى « أولبريخت » خطبة قصيرة حيا فيها قرار السماح بتكوين الأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية ، واقترح أن تؤخذ البنود العشرة فى بيان الحزب الشيوعى الألمانى لرابطة مشتركة للأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية •

ثم قدم « جوستاف داريندورف » بوصفه ممثلا للحزب الديمقراطى الاشتراكى المقبل ، فعبر فى خطابه الحماسى القصير عن أمل المناهضين للفاشية : تكوين حزب اشتراكى موحد • وللأسف — هكذا استمر فى خطابه — ان هذا ليس ممكنا ، لأن زعماء الحزب الشيوعى رفضوا ذلك ورغبوا فى أن تكون هناك فترة للوعى السياسى قبل طرح مسألة الوحدة ، لهذا السبب سيتكون الحزب الديمقراطى الاشتراكى مستقبلا ، وسيذاع بيان تأسيسه فى الأيام المقبلة •

ثم بدأت المناقشات فعبر الخطباء الذين اشتركوا فيها عن رغبتهم فى تكوين حزب اشتراكى موحد •

وعندما عدت الى مقر هيئة تحرير الجريدة ، كتبت تقريرا لجريدة الشعب الألمانية ، غير أن كل الاشارات التى وردت فى المناقشات الى ضرورة تكوين حزب اشتراكى موحد ، شطبت ولم يسمح بنشرها •

انعقد أول مؤتمر رسمى لقياديى الحزب الشيوعى الألمانى — بقيت كل الاجتماعات التى عقدناها مع قياديى الحزب الشيوعى الألمانى فى شارع « برينسين » فى الفترة من أول مايو حتى منتصف يونيو سرية لم يعلن عنها — فى ٢٥ يونيو فى مسرح « متروبول » فى برلين • وأعلن أنه مؤتمر لقياديى الحزب الشيوعى فى برلين ، ولكن كان أكثر من ثلث المشتركين فيه من مقاطعة « براندينبرج » كانت هناك مظاهر الفرح والسرور باللقاء قبل الاجتماع بساعة ، فقد تعانق الرفقاء الذين لم يتقابلوا منذ سنين عدة ، وقابلت هناك كل أصدقائى الجدد الذين تعرفت عليهم فى مقابلات واجتماعات عديدة منذ الأيام الأولى من مايو ١٩٤٥ م • اخترقت القاعة بحثا عن مكان ، فأشار الى « رومان شفالك » فجلست بجانبه •

بدأ المؤتمر الأول لقياديى الحزب الشيوعى الألمانى بعزف الموسيقى الكلاسيكية ، عزفتها فرقة « أوركسترا » أحد المسارح ، كان كل شىء منظما تنظيما دقيقا ووضح من ذلك أنهم كانوا يهدفون بذلك الى أن يضربوا المثل للقياديين ليتخذوه فى كل مؤتمراتهم القادمة ، وبهذا تزال

من الأذهان الصورة الركيكة لمؤتمر الحزب الشيوعى الألمانى قبل عام ١٩٣٣ م ويضعوا الخط الجديد الحازم لعام ١٩٤٥ م •

وعندما تحرك لسان « أوتومار جيشكى » معلنا افتتاح المؤتمر الأول لقياديى الحزب الشيوعى الألمانى فى برلين الكبرى ، دمعت عينا « رومان شفاليك » الذى كان يجلس بجوارى ولم يستطع منع نفسه من الانفجار بالبكاء الا بشق الأنفس • وحدث ذلك أيضا لآخرين وخاصة أولئك الذين كانوا فى معسكرات الاعتقال أثناء حكم « هتلر » أما « أولبريخت » فكان على العكس ، اذ ظهر أنه لم يتأثر أدنى تأثر ، وكان خطابه الجاف معاكسا لشعور معظم الرفقاء ، فقد تحدث عن توقع نصر الاتحاد السوفييتى فى النضال ضد ألمانيا الهتلرية ، وبين أن الاتحاد السوفييتى أكثر تقدما سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، كما أكد أن ادراك الاشتراك فى الجريمة والمسئولية سوف يحتم على الشعب أن يقطع صلته بالماضى الرجعى ، ويخط طريقا جديدا • ثم أشار — دون لف أو دوران حول العبارات المنمقة — الى فصل مناطق « أودر — نايسى » ، وطالب بالتعاون التام مع سلطات الاحتلال المتحالفة • ووصف مبادىء الحزب الواضحة — متبعا فى ذلك التعليمات التى تلقيناها فى موسكو — بأنها تكميل لثورة عام ١٨٤٨ م الشعبية الديمقراطية واقامة نظام دبمقراطى مناهض للفاشية ، ورد فى هذه النقطة على رأى العمال الذين يريدون « تطبيق الاشتراكية فورا » •

وتحدث « أولبريخت » عن الرغبة الأكيدة فى اقامة علاقة اخلاص وود بين الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ولكن عارض الاندماج السريع فى حزب اشتراكى موحد • ومن أجل هذا تكون بعض الالتزامات ضرورية وفى مقدمتها « الادراك العلمى لقوى التقدمية من الطبقة العمالية والشعب العامل ، عن الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ، وعن مفهوم الحياة فى « الماركسية — اللينينية » •

وفى النهاية أعلن « أولبريخت » عن تعريف جديد للحزب الشيوعى ، علمت فيما بعد أنه من عمل « فريد أولسنر » فبدلا من الصيغة القديمة التى سادت فى فترة ما قبل عام ١٩٣٣ م ، والتى كانت تتحدث عن الحزب « البوليتارى » الثورى ، تغيرت النغمة الآن ، فأصبحت الشعارات : الحزب الوطنى ، وحزب الشعب ، وحزب السلام • وينبغى

أن يضم الحزب « أحسن الرجال والنساء من طبقات الشعب الخلاق وكل المناضلين الشرفاء ضد الفاشية » .

وانتقد « أولبريخت » الوضع فى بعض المناطق حيث قبل عدد قليل من الراغبين الجدد فى الانضمام الى الحزب ، لأن بعض القياديين « وضعوا شروطا قاسية للانضمام الى الحزب » وهذا خطأ جسيم .

سمع هتاف عال ، عندما قال « أولبريخت » بأعلى صوته « يسمح بالانضمام الى الحزب لكل المناهضين للفاشية ، سواء أكانوا كاثوليكيين أو بروتستانتيين ، أو يهـود ، فليس للعقيـدة أدنى تأثير فى شروط الانضمام الى الحزب » .

وعندما انتهى « أولبريخت » من خطابه ، غنى الحاضرون أناشيد عالمية ، ورفع كثيرون قبضة أيديهم تحية للجبهة الحمراء القديمة ، وهى تحية أعضاء الحزب القدامى قبل عام ١٩٣٣ م ، ولكن « أولبريخت » وأعضاء هيئة الزعامة ، وكل أولئك الذين كانوا فى الصالة من المخلصين « للخط الجديد » لم يرفعوا أيديهم ، وعندما لوحظ ذلك أنزل كثيرون أيديهم ، كان هذا مثالا صغيرا ، ولكنه ذو طابع خاص على تغيير ما كان قبل عام ١٩٣٣ م فى الحزب الشيوعى الألمـانى ، فقد تغير من حزب ثورى معارض مكافح للوصول الى هدف ديكتاتورية « البوليتاريا » ، الى حزب دولة ، يدعو الى الديمقراطية المناهضة للفاشية ، والى نظام برلمـانى ديمقراطى .

* * *

الجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية

نفذ الجزء الأول من التعليمات التى أحضرها « فيلهيلم بيك » والزعماء الآخرون معهم من موسكو فى أوائل يونيو . وكان الجزء الثانى أكثر صعوبة ، وهو تأسيس أحزاب أخرى ديمقراطية مناهضة للفاشية ، وتكوين جبهة ديمقراطية متحدة مناهضة للفاشية . أعلن فى ١٧ يونيو ١٩٤٥ البيان التأسيسى للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، الذى كان أبعد منا درجـة الى اليسار وأيضا جريدة تنطق بلسانه أطلق عليها اسم : « الشعب » ، وكانت فى صورتها وحجمها أصغر من جريدة الشعب الألمـانية (Deutsche Volkszeitung)

وبعد تأسيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى بأيام قليلة ، اتفقت هيئة الزعامة فى كلا الحزبين على تكوين مجلس عمل مشترك ، يمثل فيه خمسة من المراكز الرئيسية فى كلا الحزبين ، وتكون مهمته العمل المشترك فى النضال ضد البقية الباقية من النازية ، وبناء جمهورية برلمانية ديمقراطية مناهضة للفاشية ، كذلك افساح المجال لتوضيح المسائل الأيديولوجية ، عن طريق تنفيذ اقامة المؤتمرات المشتركة واللقاءات الجماعية •

وقع على الاتفاق من الحزب الديمقراطى الاشتراكى « ايريش ف • جنيفكى » و « أوتو جروتيفول » و « جوستاف داريندورف » و « هلموت ليمان » (وكلهم كانوا فى ألمانيا أثناء الحكم النازى) ، ومن الحزب الشيوعى « فالتر أولبريخت » و « أنتون آكارمان » و « أوتومار جيشكى » و « أوتو فينسر » (ثلاثة من اللاجئين السياسيين فى موسكو ، وواحد من الحركة السرية المناهضة) •

وبعد تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى ، وتأسيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى ، وتكوين لجنة العمل المشترك بين الحزبين • أصبحت مسألة الأحزاب الأخرى المناهضة للفاشية ضرورية • كنا معتقدين أن الحزب الديمقراطى القديم ، وحزب « الوسط » سوف يظهران من جديد باسميهما القديمين • صدرت التعليمات الى رفقائنا فى الأحياء المختلفة ، بأن ينظموا جبهة متحدة من ممثلى كلا الحزبين ، وحدث هذا أيضا فى أجزاء مختلفة من برلين ، ونشرت فى « جريدة الشعب الألمانية » عن مؤتمر موحد لممثلى « الحزب الديمقراطى » وحزب « الوسط » رغم أنهما لم يتكونا بعد •

مضى أسبوعان ولم تتكون الأحزاب الوطنية التى ينبغى أن تتكون معها جبهة ديمقراطية متحدة مناهضة للفاشية ، فقد اصطدمنا هنا للأسف بقوى لا تريد أن ترسم لها خطوط محددة •

وأثناء الساعات القليلة التى لم أقضها فى هيئة التحرير ، بل فى مقر حزبنا فى شارع « برينسن » ، كانت الأحزاب الوطنية هى الموضوع الرئيسى للحديث • كان « أولبريخت » عصبيا :

— « يجب أن نتيقظ ، فـ« هرمس » ينحرف بالعملية ، فهو لا يريد تنظيم حزب « الوسط » بل تنظيم حزب وطنى متحد » •

تلقى أعضاء « مجموعة أولبريخت » السابقة — الذين لم يرسلوا

كـ« مارون » و « فينسر » الى ادارة برلين ، ولا كـ« مالى » الى الاذاعة ، أو مثلى الى الجريدة — واجبات جديدة كل الجدة : يجب عليهم تركيز جهودهم فى مسألة تأسيس الأحزاب الوطنية ، وكان فى ذلك التكليف روح معارضة ، فـ« جيبتنر » ذو الطابع « الستالينى » الخالص ، يتلقى هو بالذات تعليمات بأن يتصل « بالأوساط الليبرالية » •

ظهر حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ببيانه التأسيسى فى ٢٥ يونيو وأصدر جريدته « العصر الحديث » بشكل مماثل لجريدتنا ، وسرعان ما ظهرت معارضة اديمقراطيين الاشتراكيين ، الذين لم يعودوا مسرورين من شكل جريدتهم الصغير ، ولكن حلت المشكلة بسرعة : فلم يسمح لجريدة « الشعب » بتكبير حجمها بل خرجت جريدة « العصر الحديث » بالحجم الصغير ، وبقينا نحن محافظين على حجم جريدتنا الكبير •

أثار تكوين حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى الاهتمام بمسألة تكوين « الحزب الوطنى الثانى » •

استفسر « أولبريخت » من « جيبتنر » :

— « يا « ريتشارد » •• كيف الحال الآن مع الليبراليين » ؟

— « نعم يا « فالتر » •• ماذا أستطيع أن أفعل ؟ كنت عندهم مرات عديدة ، وتكلمنا كثيرا ، ولكنهم لا يريدون الآن تأسيس حزب » •

فحثه « أولبريخت » قائلا : « حاول اقناعهم يا « ريتشارد » !

لم أعلم عما اذا كان « جيبتنر » قد نجح فى اقناعهم أم لا ؟ ولكن على أى حال ، فقد أعلن فى يوليو تأسيس « حزب ديمقراطى ليبرالى » •

وبعد ذلك بأسبوع واحد — أى فى ١٤ يوليو — صدر بيان عن تكوين جبهة ديمقراطية متحدة مناهضة للفاشية • من الحزب الشيوعى الألمانى ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى ، وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى •

قرر زعماء الأحزاب النضال المشترك لتطهير ألمانيا من بقية الهتلرية ، وطالبوا ببناء الدولة على أساس ديمقراطى مناهض للفاشية ، والعمل سويا على اعادة بناء الاقتصاد بأسرع ما يمكن ، وارساء قواعد علاقة احترام وتعاون مع الشعوب الأخرى ، وتنفيذ الاجراءات التى تتخذها سلطات الاحتلال • وفى نفس الوقت « تلزم الأحزام الأربعة » باقامة العدالة القانونية على أسس دولة قانونية ديمقراطية ، وتأمين

حرية الفكر والضمير ، كذلك احترام كل العقائد الدينية والآداب والتقاليد الناشئة عن النظرة الى مفهوم الحياة » .

نشر خبر تكوين الجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية بالخط العريض على الصفحة اولالى فى « جريدة الشعب الألمانية » ، وبهذا نفذ بعد شهرين ونصف من وصول « فيلهيلم بيك » تكوين الأحزاب ، وأنشئت هيئة العمل المشترك . كما رسمت خطوطها من الجبهة المركزية العليا .

وكان هذا مبدئيا فى برلين فقط .

لم يوجد فى الريف فى بادىء الأمر سوى الحزب الشيوعى ، بينما لم يؤسس الحزب الديمقراطى الاشتراكى الا بعد أسابيع ، والأحزاب الوطنية الأخرى بعد أشهر عديدة . أخبرت الادارة السياسية الرئيسية الحكمداريين السوفييت بتأسيس الأحزاب الأربعة ، وتكوين الجبهة المتحدة ، وأمرتهم بمساعدتها . وقعت فى غضون ذلك حادثة « تروتسكين » فقد حكى أحد الرفقاء من مركز ناء فى مقاطعة « براندينبرج » كيف استدعاه الحكمدار بعد تكوين الجبهة المتحدة للأحزاب الأربعة وقال له :

« وصلتنا أنباء هامة من برلين ، بأنه تأسست أربعة أحزاب ديمقراطية مناهضة للفاشية ، وتكوين جبهة متحدة ، ويجب أن أعرف الوضع الآن فى المركز ، هل يوجد عندنا حزب اشتراكى » ؟

— « لا .. لم يوجد بعد أيها الرفيق الحكمدار » !

— « سيء جدا .. لابد أن يكون عندنا حزب ديمقراطى اشتراكى . هل عندنا حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » ؟

— « لا .. أيها الرفيق الحكمدار » .

— « ولم لا ؟ مكتوب هنا : الاتحاد الديمقراطى المسيحى . هل يوجد عندنا حزب ديمقراطى ليبرالى » ؟

— « لا .. أيها الرفيق الحكمدار » .

غضب الحكمدار غضبا شديدا :

— « أيضا لا ؟ سيء ! لابد أن يكون هنا حزب ديمقراطى ليبرالى . أنت مكلف بتأسيس كل الأحزاب كما هو مكتوب هنا » .

— « ولكن لا يتأتى هذا أيها الرفيق الحكمدار ، فأنا سكرتير الحزب الشيوعى الألمانى فى المنطقة ولا أستطيع أن أؤسس حزبا آخر » .

فتنبه الحكمدار :

ـ « هل تعرف الديمقراطيين لاشتراكيين » ؟

ـ « نعم .. أيها الرفيق الحكمدار ، ولكنهم انضموا الى الحزب الشيوعى » .

ـ « لا بأس ، يجب أن ينفصلوا ويؤسسوا الحزب الديمقراطى الاشتراكى كما هو مكتوب هنا » .

وقد حدث ، وأخيرا وجد أيضا اثنان وطنيان نظما مجموعات الحزبين الآخرين .

فرك الحكمدار يده مسرورا :

« الآن .. جيد » ! قالها بصوت عال ، ثم دعا السكرتير ليتناول معه كأسا من « الفودكا » . « والآن يمكننا أن نرسل تقريرا بأنه عندنا كل الأحزاب كما هو مكتوب فى التعليمات التى وصلتنا من برلين ؛ وعلينا الآن أن نكون فورا الجبهة المتحدة » .

من المسلم به أن هذه كانت حالة غريبة ، ولكن ـ كما ظهر لى ـ لم يكن من المشكوك فيه أن الأحزاب الأربعة تأسست من أعلى ، من الجبهات المركزية . وفى يوليو ١٩٤٥ م ـ بعد ما شوهد تصرف القوات الروسية ـ اختفى النشاط الذاتى فجأة كما ظهر فجأة فى مايو عندما تكونت اللجنة المتحدة المناهضة للفاشية . وكانت هذه حركة حقيقية من القاعدة أفسدت البذرة . بدأت زعامة الأحزاب التى تأسست فى البحث عن أعضاء باخلاص ونشاط كبير ، ولكن الآمال الكبيرة التى فجرت النشاط العملاق والمبادرات الذاتية عند المناهضين للفاشية كانت قد اختفت ولم يعد لها أثر .

أما ظاهريا ، فقد سار كل شىء طبقا لما هو مرسوم . نعم كان هناك تردد ضد تأسيس الأحزاب الوطنية ، وكانت أسماؤها تختلف أيضا عن الأسماء التى اخترناها ، ولكن ما يتعلق « بالخط » ، فقد تطابقت التطورات بالضبط مع التعليمات ، التى أحضرها « فيلهيلم بيك » معه من موسكو .

* * *